



يَرْدُنَ المشرب..

مرّتين

عبدالله ثابت



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital
Publishing
Program
برنامج
النشر
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

يَرِدَنَّ الْمَشْرَبَ.. مَرَّتَيْنِ

عبدالله ثابت

فَظْط خَبْنَة..

ونحن على التل نفسة، أشير في مبتدأ هذا الكتاب أني كنت قد نشرث بعضاً منه في غير مكان، وقد عملت على تجريد هذه الأوراق من مناسباتها، مبقياً على خدرات التأمل، وحك ما هو إنساني وجمالي بالمقام الأول، والذي هو الكامن الذي يربط هذه الصفحات ببعضها.

وأولاً وأخيراً فإني أمهر كل كلمة في هذا الكتاب، لأجل أولئك الذين يثابرون على اختلافهم.. ويخيفهم أن يكونوا قليلي المعنى.

لكننا محبوسين

سألت ابنتي نهران، وهي في العاشرة؛

- ماذا لو أن الدنيا من غير أبواب؟ - لكننا محبوسين. - كيف؟. - لن نجد باباً نخرج منه.

هذا الانتباه للحياة لمن هم في الثلاثين، في العشرين،
أو أصغر،

ولآخرين مضت بهم الأيام قدماً فكبروا، لكن الوقت لم
ينحهم جانباً..

عبدالله ثابت

ظُلُّ عَالِق

1

- كيف اضطررت لهذا الطريق؟ - تواطؤ الحياة.. - إذن أردت درباً وعلقت بآخر؟ - علقت بالمقت.

قدمان، وَمَعْبَرٌ لا خطوة فيه للوراء، قدمان والطريق اسمه المصير، ونحن العابرون لا نتوقف عن الهرولة، مهما يكن إعيائنا. حتى ونحن في أشد حاجتنا للراحة وأحياناً الإغماء، إلا أننا لا نستطيع أن نكبح سعار الزمن، أن نستعيد أنفاسنا من هذا الركض المتصل، ولو لغمضة.

إنه الوقت يركز قبضته في ظهورنا، ويدفع كلاً منا نحو مصيره دون توقف.

الوقت.. هذا المجهول الغامض، ألا يمكن أن يكون في هذه اللحظة منه، سيده ما في هذا الوجود، أتخيلها في الأربعين من عمرها، مغمضة عينيها، مائلة برأسها إلى الجدار، والهموم تكاد تشرخ جفنيها المطبقين، وتعب قائم يعلو ملامحها بانكسار مؤلم، لدرجة أنه لا أحد يجرؤ أن يسألها؛ ما بك؟. وربما كانت قبل هذه اللحظة قد حدثت نفسها كثيراً أن تضع حداً لخيبات تحيط بها من كل صوب. كانت كبرياؤها وكرامتها لا تكفان عن توبيخها وازدراؤها. أتخيلها اللحظة تشعر من أعماقها أنه يتوجب عليها أن تقفز من هذه الحفرة الخائقة، أن عليها أن تمسك حياتها بخطامها وتعدو بها، كذئبة مجروحة في كاحلها.

تدري أنها لو لم تفعل، فإنها ماضية نحو قبرٍ محفورٍ بجوفها، وأنها قريباً ستكون عظامها الحقى، وستنهب ما تبقى من قلبها.

أتخيلها وأنها يستحيل إلى منقار، وينبت في جنبها جناحا صقر.

الوقت..

وأتحسس بيقين كيف أنه، وفي زاوية أخرى من هذا الكوكب، تجلس الآن امرأة أخرى على فراشها، حاشرة رأسها بين ركبتيها، لأن لها بيتاً قديماً وصغاراً، لم ترهم منذ أمدٍ بعيد، تحلم لو يمرّون بعينيها، ولو كوجوه طرية خلف زجاج عربة مسرعة.

ثم تندفع بقلبها المجهد نحو الجدار وتنوح؛ أعرف أنها أشياء لا تعود، لا يمكن أن تعود، وأنا امرأة تموت.

وقت..

ويوماً لم أكن أشعر بشيء، لكنني مشيت بهدوء خلف عجوزٍ بالصدفة، معكوفة الظهر وعمرها لا ينقص عن ثمانين سنة، كانت تقطع طريقاً طويلاً وحدها، مليئةً بالحياة، وتمشي بتصميم.

2

- مأخوذ أنا. - أغوني، أغوني.. - أشعر أن زوبعة تغلي في صدري، لا لا، ليست زوبعة، شيء..
كوحش أليف يربض جوّاي، ويحك صدغيه في قلبي. - أغوني، قلبي صار جُحراً لفئران
الحزن.

الرتابة الملعونة تحيط بكل شيء..

لكنني هزمتها مرةً بخديعة سقطت على حياتي، ولم أتعدها.

ألا يحدث فجأةً أن شيئاً سحرياً خدعنا بلذة، أخرجنا من وقتنا المتبلد، وقلب كل شيء،
وأعادنا إلى بهجتنا بوخزة خاطفة، أنه رمانا بتلقائية في محض خدعته الفاتنة.

الخدعة التي تطوح بنا دون عمد، دون نوايا رديئة، تلك الخديعة الحلوة، تضيء كالبرق. الخدعة العبقريّة، التي يتبيّن فيها أحدنا، وبعد عبورها، أن نشوتها داهمتها، ومزّت فوق تخمينه. الخدعة التي لا يمكن أن ننظر إليها بغير عينيّن مشدوهتين وفيم مفتوح، التي تخرجنا صدمتها وفتنتها عن طورنا فنصيح بسبابٍ حميم؛ "اللعنة!"، أو صرخة حادة، أو أن نلتئم ونحن نصرخ "الله .. الله!". الخدعة تلوي القلب بعفوية مفرطة، وهي غير عابثة بما فعلته.

قد تجيء خدعةً بأغنية غير متوقعة في وقتٍ غير متوقع، أو قد تعبر في لمحّة من كائنٍ جميل، استغرقت ثواني ثم تفتت سريعاً في العدم، أو ربما جاءت الخدعة برائحة تقذف بك سنواتٍ للوراء.

وتجيء خدعة.. فتنترك في غابة أسرار، تغريك وتريك جسد الوجود بدقة وهو يقشعر، ويؤدي دُواره وخَدَرَه بهذه البراعة.

3

- هذا يشبهك، راقبه فقط. - من يشبهني وكأني خرجت على الناس من مقبرة! - ظننتك سقطت من كوكبٍ فضي.. - آخ! ما أطيبها تلك الجَلَبَة في الروح!

من غادروا بداياتهم وغابوا عنها زمناً، فأول ما يفعلونه في الإياب أن يختبروا حواسهم على أول صباحٍ في أمكنتهم الأولى وأول عشية. على الوجوه الغاديات، وعلى الرّواحين وسحنة الليل وغبش الممرات، يحاولون أن يعبروا المسافات التي تخلّقت في دواخلهم، إلى أيام كانوا قد ألفوها بقلقٍ وشجن، باحثين بحنينٍ بالغ عن كل ما كان له عندهم حكاية، وبخوفٍ وحذر يستجدون روح الأمكنة وكائناتها، ويحلمون لو جاءهم نداءً من جدارٍ أو جذعٍ أو عابرٍ يهتف؛ هيبه. أنت فلان، لقد عرفناك..

هنا مشينا، وهنا كان يسكن آل فلان، وهناك جلست فلانة، وفي تلك الساحة كان يجتمع الناس، وخلف ذاك الحائط كانت الأيام ترانا، ومن هذا الزقاق كنا نمشي كل صباح، وكثيراً ما رجعنا منه ولم نحرز من الدنيا قوت يوم ولا ليلة. هذا ما يقوله لنا الكبار كل مرة، هذا ما يقوله لنا الكبار وهم يلقون نظراتهم المليئة بالأسى والحنين والحسرة على الأعمار التي حملهم عليها الوقت حتى بلغوا أيامهم الوحيدة. هذا ما يقوله لنا أولئك الذين ينغز هاجس الموت جنوبهم كل ليلة قبل أن يناموا، وكأنهم يوصوننا بأن لا تفلت الأيام منا، أن نقبض عليها ونملأها بالحياة، وكأنهم يقرصون آذاننا ويهمسون فيها بهدوء أن زماً سيأتي ونصير كباراً ومستئين مثلهم، وأنا ذات يوم سنرى في مناماتنا أكف أمهاتنا وسواعد آبائنا، وأنا حينها سننقف ملياً عند رائحة التراب الأول، وستخيل حليب الأمهات وهو يطفر من الأشداق، وكيف تعلمنا بضحك طقطقات الأصابع أول مرة، حيث الطعم الذي لا يرجع.

4

- لو أدري مِمَّ خُلِقَ السهاد! - من الشتائم، من الجِدَّة.. - كأن الليل يقف على ساقٍ واحدة. -
أيها اللقلق.

عند الإشارة تكون الساعة (AM 07:30): في زمن الأرق والركام هذا، لم أنم البارحة.
عند اللحظة (112:0AM): عيناان تحدقان عميقاً في البلدة، وكهلاً تجاوز المائة، بثيابٍ ولحية بيضاء، يكتب على باب المدينة: "لا يمكن لهذه البنايات العالية، ولا الشوارع المسفلتة على مدّ البصر، ولا كل هذه اليافطات والدعايات الضخمة، لا يمكنها أن تملأ الأرواح الفارغة، وأعمدة النور تلك لا تستطيع أن تخدع المشاة طويلاً.. ولا أحد بوسعه أن يكتم رائحة الخراب الذي ينخر كل شيء، وتختنق بدخانه نفوس تتعب أكثر، يوماً إثر يوم.
يا ربّ لطفك، كأن ليس في هذه البقعة أغنية.. ولا فتيات."

واللحظة (02:07AM): صديقان على الهاتف، تحدثا عن عذاباتٍ لم تجد من يمسح رشح حمّاهما بلطف، وأخيراً قالا كلاماً عابراً عن الكتب التي سيقراها الآتون بعد مائة عام، وبتضجّر.. سخرا مما بقي من الأحلام، وقبل أن يغلقا الخط، قال أحدهما جملةً شاردة: "إننا نكدح لأجل أرضٍ لا نملك فيها بيوتاً". سكت الآخر عندها قليلاً، ثم أطبق سماعته..

وفوق أحد البيوت القديمة، بقريّة في الأقاليم، وفي الـ (03:15 AM) وبالرغم من شدة البرد وحلّة الليل إلا أن صبيّة صغيرةً توشك أن تكمل عامها السابع عشر، كانت ترفع رأسها باتجاه السماء، وتستقبل صفحتها الغربية بوجهها الصغير، تريد أن تنظر إلى حطّ سنواتها المعلقة هناك بعيداً، فرأت أن النجوم كانت قليلةً وعزلاء.

وفي تمام الـ (04:33AM) كانت السيدة التي وخط الشيب رأسها من كل مكان قد أكملت قراءة رواية "الحب في زمن الكوليرا"، ولم يكن الكتاب الأول الذي رمته بتأفف على الرّف وهي تقول "ما هو هذا الحب الذي أمضيت عمري في قراءته"، وبتصرّف يائس سحبت كتاباً ماركوناً عن الموت، ورجعت إلى مقعدها، وفتحت أول صفحة.

عند الدقيقة (05:50AM): تلمع عينان بين أنقاض الحياة.

(07:30AM).. يا لهذا الأرق.

5

- تؤلمني عيناى. - قلبهما في الجوّ، هُشّ الهواء.. - في بركة الخفاء! - في فرط الحنوّ..

منذ كان الليل يقف وحده، عارياً في الكون، خالياً من الكواكب والوعول والبنّ، وقبل أن يعرف الليل عدد المجرّات والوصايا، وقبل أن يخطر بباله أن أشياء هائلةً ومهولة ستتوالد منه، وأنه سيصير بئراً مقلوبةً في السماء.. في ذلك الحين البائد لم يكن يفكر الليل بالنظر

إلى نفسه، ولم يفهم حتى ما معنى البصر ولا المرايا وصفحات الماء، وهكذا لم يخمن ذلك الليل اليتيم أبداً شكل جسده المعتم، ولا كيف هي خلقتة.. كان يظن أنه مجرد فكرة.

وذات وهلة من يوم قديم.. ولد الحنين، وحينها وفي تلك الوهلة الخاطفة منه، شعر الليل أن شيئاً ما يحدث لأول مرة، فالتفت فجأة.. وكان أول ما وقعت عيناه عليه: عينا امرأة كانت تنتظر بحرقة، فرأى سواداً حالكاً، ممتداً حتى آخر حائط في الكون.. لكنه لم يتوقع أنه كان يرى نفسه. لم يفهم ذلك فوراً، لم يفهم أنه كان تلك الحلقة المبلولة، وعندما حدق أكثر وأكثر، وتحسس جسده من جميع الجهات، فتح فمه لأقصاه، ثم صاح بوجه الحنين والنساء؛ هذا أنا.. أنا هو الليل.

كان الليل قد رأى في صميم جسده أشياء كثيرة، لا تحصى أبداً؛ رأى عدداً من المذنبات والنيازك الهائمة في الفضاء، ورأى دخاناً كثيفاً يخرج من هامته، ولمح وعوداً وروائح شعراء لم يسمع بهم أحد، واقترب أكثر فميز مناديل ممزقة بحنق، وفلاحين غاضبين، وجبالاً كاملة من المطر، وشجعان ينزفون بصمت، ورأى أغنيات من الوديان والحنطة، ويتمى يركضون هنا وهناك. رأى الليل في جسده أشياء كثيرة وكثيرة، لكنه أيضاً رأى طريقاً من الطين ينتهي إلى قرية فقيرة، وفي منتصفها كان يمشي رجل بمفرده، وكان يغني بلا اكترات.

6

- فجأةً خلا المكان.. - لكن زنبقةً نبتت في جدار المَشْرَب - الزنابق شهل؟ - بعضها أشهب.

يقول الحلم.. أصغ إلى النداء الغائر جداً في داخلك، حاول أن تفهم لغته الخاصة، وتلمس اتجاهه جيداً واتبعه، فهناك تكمن حياتك الكبرى. لا بد أن الذين صنعوا أحلاماً كبرى في تاريخ الإنسانية كانوا بالتأكيد قد أقسموا أن يصلوا إلى ما وصلوه. استمعوا للنداء الذي ينبع من أقصى مخبأ في قاع نفوسهم، وعلى الفور امتثلوا له، وكدحوا خلفه كي يدركوه.

لا أصدق أن الذين غيروا شيئاً في كيان الأرض وأهلها، أو على الأقل في أمة من أممها، فعلوا ذلك بمحض الأقدار، لا أصدق أنهم لم يشعروا برجفة أقدارهم، مذ كانت تغفوا أعينهم في حجور أمهاتهم، فيرون شيئاً ما.

يقول الحلم: أنه لا يوجد حيّ دونما حلم، لكن أكثر الناس لا ينصتون لداخلهم، ولا يروّضون تأملاتهم كي يميّزوا ذلك النداء، إما لأنهم لا يفكرون على هذا النحو، أو لأن هناك من سرق قدرتهم على الحلم، ليكون مصيرهم أن يستسلموا لحياة الزحام والعدائية، وبآخر المطاف يصبحون أعداء شرسين لكل من لا يشبههم، لأنه يربعهم كل من تنطوي نفسه على حلم. ومرة أخرى يقول الحلم: أغمض عينيك كل صباح، واستمع إلى الصوت الكامن في جوفك، وامثل له، وافعل ما يمليه عليك قلبك، وقبل أي شيء.. حُزّ يقينك.

7

- هكذا تشاكلنا على نحوٍ مفرط في الشبه. - بل تشابكنا كجديلة.. - وتركنا لبساً ما في الوادي، - ستتمو عليه قرية.

مقاهي الفراغ..

مقهى؛ البنت التي لا تأكل ولا تشرب ولا تتحدث إلى أحد، تلمح نقشاً على قميصها، فتتذكر خزانة ملابسها، وكأنها تقف أمامها كمن يواجه حياته، وتهمس: "أمام هذه الخزانة القديمة، أنا وأنت أيتها الأرفف وحدنا.. كلانا تجرحنا البقايا."

وفي مقهى آخر، حيث يتعالى الضجيج حتى الصباح، مأهولاً بالفارين من النهار. فيبدو منظرهم كمشهد رائع، ويظهرون من بعيد وكأنهم جميعاً لقطّة صاخبة في شاشة سينما، تتحرك فيها مشاهد متناقضة، وغريبة، وحزينة، ومضحكة، ومخيفة، ومسلية، و.. الخ، هذا

كله في وقت واحد، حيث تتعالى أحاديث طافحة باللعب، والذقون والشوارب المحفوفة بعناية، والسبحات الصفراء، الملطخة بالسرقات والفسق أكثر مما تدعيه من التسبيح، ومن أمامهم تروح وترجع سياراث الليل بهدوء، أما سيارات الأجرة فتقف في الخارج، وهنا وهناك مقاعد بلاستيكية تتناثر عليها أجسادٌ منهكة، هذها إعياء السهر والانتظار والأرق، ومقاعد أخرى تخلو شيئاً فشيئاً.

مقهى كبير.. يمتدّ على كوكب الأرض من أقصاه إلى أقصاه، مقهى باهت اللون والوقت، يدعى "مقهى الفراغ": وآلاف الملايين تقضي أعمارها فيه.

وفي أول يومٍ يطلع فيه الصبح على الرجال الكبار وهم بلا أمهات، يشعرون بشيء غريب، يفهمون أنه لم يعد هنالك شيء أو أحدٌ يحفلون به، وأن مهابةً إنسانيةً محضة رحلت عن نفوسهم، وصاروا مكشوفي الرؤوس.

8

- بزبوز خفيف، بزبوز.. - طير أم صنبور؟ - الصنابير طيور - بزبوز خفيف بحياة ثقيلة، بزبوز خفيف ببؤس مائل!

لا أحد يعرف من أي وادٍ تأتي ربح النهايات، لكن ما دام الإنسان حياً فإنه يفتش عن شيء يملأ وجدانه ويحقق ذاته.

وفي كل وادٍ مصادفاته وأسئلته الخاصة به، الأسئلة التي تجيب عن قلق الإنسان وحيرته، وما حقيقة الذي يفعله، وهل ما يعيشه ويعتقده صحيح أم خاطئ! والوادي الأكثر جمالاً ومغامرةً هو الوادي الملائن بالتساؤلات، والبحث عن الحقيقة، لأنه يفتح عيني صاحبه على التأمل في كوامن هذا الكون، ويكشف للإنسان مدى طاقاته وقدرته، ويلهمه روح اللغة واللون واللحن، ويرهف سمعه إلى أعماق ما في كل شيء، وحتى لو لم يكن وادٍ من هذا النوع يقيناً مطلقاً إلا أنه يحشد النفس للتطويح والفتنة.

وأجيال مهزومة في هوياتها في كل مكان، ضعيفة في علاقتها بأرضها وفهمها لوجودها، يغلب على أعمار أكثرها الكدح المضني لتحقيق حاجاتها الأولية.. أجيال سئمت وجودها، تفتش عن حياةٍ بديلة، عن ذاتٍ بديلة، عن وجدانٍ بديل، عن أرضٍ وحليمٍ ومجتمعٍ بديل.. أجيالٌ لا يلزم لاختطافها والتحكم بأرواحها وأجسادها كالدمى، سوى أن تُرمى على أدمغتها الخاوية تلك الأفكار المليئة بالوعود والأحلام والبطولات، ووهم الخلاص والأمان.

9

- كما لو أنه مسَّ خَفَرٌ.. - ههه لالا ههه - لمسة رأس؟ - لا، أسفل منه قليلاً، قليلاً لليسار بغمزة!

لا بدّ أن أول شيء لمس هذه الأرض وحط رجليه عليها كان مخلوقاً شديد الحميمية والوحدة. لم يكن له جسد، كان وقتاً له قدمان. نعم.. كان هو بذاته أول ثانية تقطر من جديلة هذا الوجود الليلي على تراب الأرض.. كان ذلك المخلوق ساكناً ومليئاً بالانتظار، وكان اسمه "الفجر"، ولم يعرف حينها أنه الوقت الوحيد الذي أمكنه أن يسبق ضوء الشمس الخارق. كان هذا في زمنٍ بعيدٍ جداً، عندما كانت الأرض قفراً من الأشياء والذاكرة.

ثم لا بدّ أن ذلك "الفجر" عندما أتى بدأ بفرك الطين تحت رجليه في أول مسّة، بقي واقفاً بمكانه لزمن، وقبل أن يبدأ أول خطواته على هذه الأرض تلمّس جنبيه، فوجد تحت أضلاعه اليمنى لفافةً شفافة.. فكّها فوجد في باطنها "الموسيقى" تحيط بها "حناجر" لا حصر لها، فرفع لفافته تلك في الجوّ، ونفضها في وجه الرياح.. وهكذا كان الفجر هو أول من ملأ الدنيا بالموسيقى والحناجر. ثم تلمّس جنبه اليسار فوجد تحت أضلاعه اليسرى "الشعر" وحواليه "جباه" حزةً وقليلة، فسحب لفافته الأخرى برفق، ثم نفضها أيضاً في وجه الرياح والمطر.. وهكذا كان الفجر أيضاً هو أول من لَوّن الدنيا بالكلمات والشعراء.

خطى الفجر خطواته الأولى، ومشى ومشى طويلاً حتى تألف مع الطين والجبال والرمل، وأحب الوديان والبحر والعشب الأخضر، واطمأن إلى القرى كثيراً، وصار الفجر وهو ينزل على الأرض كل يوم كلما سمع حنجرةً تغني أو جبهةً تهمس بكلمة شعر، أو مشت إلى أذنية نغمة موسيقى، تذكر مكانها تحت جنبه، وضمها وقال لها "أنت من جنبي"..

.. في لحظة ما، تسلت كلمات إلى سمع الفجر، أصاح لها، ثم أعادها وكررها حتى حفظها، وتذكر مكانها من أضلاعه، وميز الجبهة التي الحرّة التي قالتها، ثم فتح عينيه ليرى من أي ناحية جاءت، فوجد رجلاً مختلياً بنفسه، وحيداً على سقف بيته، لا ينتظر أحداً أو شيئاً، وكان يجمع كفيه، ويقرأ فيهما كلماته.

10

- قل اشتقت. لا تستطيع.. قل أحب. لا تستطيع، - إنك في الجحيم. - مليء بالريبة والأعين التي تخافك وتخافها - إنك في الجحيم.

تنظر في كفيك وأنت تكتب رسالة إلى ميت، رسالة تعرف أنها لن تصل، تنظر في كفيك وتعرف أنك تكتب لنفسك، أنك تخرج منك لتداري قوتك، تكتب لكي تملك شجاعة النحيب التي حرمت نفسك منها. تكتب لكي تبرك على الأرض كما يفعل آخرون تعرفهم، لا يابهنون بك ولا بما تفكر فيه، وتتمنى لو أنك مثلهم.. تكتب رسالة للموت والعدم.

ثم صوت من وراء الجبال يهتف في خيال جفنيك "أفهمك".. وتقول في نفسك "أنا على شفير حياتي"، ها هي الجنائز تمشي في عينيك وتتقافز نحو الهاوية. الهاوية التي لا يفهم الطيران فيها غير الذين فقدوا أية ثقة بالآخرين، وتظن أنك شبعت من كل شيء، أنك تعيش في الخيالات.. لكنك مشغول بكل شيء، يا لتعاستك!

نمت اليوم. أمس لم تنم! نمت اليوم، تعرف أنك لن تنام غداً. ثم صوت من وراء غيمة، من جهة بيضاء، تحبك وتخاف عليك، تقول لك "لم تبدو منهكاً. هل تعبت. لا تستطيع فعل شيء وتشعر بورطة الوجود.. هيا انظر إلى نفسك، إنك تقضي عليها. لا أسامحك".. تفكر وتفكر، ثم لا يكون أمامك سوى النوم البليد أو العناد البشع.

11

- أنا شقي، أنا في شيء لا ينتهي. - تربة وتريد العودة لها؟ - رجل بعيد في خيال بعيد. - أوف! روح لا تتبدد؟

في كل بيت:

• شاعر

وأفكر ما الذي تناله الأوجاع من حياة الشاعر؟ وأتأمل الشعراء الذين أثروا في إحساس العالم، وفي كل مرة أجد الأوجاع قد نالت منهم ما تريد. كأنه صار طبعاً من طباع الحياة أنه لا يمكن للشاعر أن يعيش دونما ألم، كأن هذا التعب الموزع على كوكبنا هو أقصى ما تريد القصيدة في أحشائهم أن تلمسه، وكأنه أعمق ما يريد المفتون بالكلمات أن يصل إليه، وكأن هذا التعب لا يمكنهم من نفسه حتى يشويهم. والشعراء.. الشعراء يعيشون طويلاً، ليس لأن لهم حظاً كبيراً.. لا لا، هو العكس تماماً؛ لأنهم دونما حظ، لأن الحياة لا تجد من تهرسه وتمزقه بنابيها أشهى منهم..

وفي كل بيت:

• امرأة..

هي هي.. في كل شيء؛ بجوار موقد أو مائدة، أو في زجاج نافذة، أو تحت حبل غسيل، كما هي خلف الورق والمجهر والمكاتب والحلم، هي هي المرأة نفسها في كل بيت، يدها في كل ناحية، ونسبتها مخبوءة في تفاصيل الأشياء. هي المرأة منذ أول شهقة، وحتى آخر زفرة في الحياة، وتأملوا وجوهكم وخيالاتكم.. فأصابعهن دوماً هناك.

في كل بيت امرأة تحيك العيش لمن حولها وتمضغ نفسها يوماً بعد يوم لأجلهم، تريد أن تحصل على عالمها، أن يكون لها حقها واستقلالها، ألا تلاحقها نبال المقولات التي تضربها في ظهر وجودها، لتحيا كأبي إنسانٍ جديرٍ بوصايتها على نفسه بكامل أهليته. في كل بيت امرأة سئمت ممن يجعلونها ميداناً لاستحواذهم، الذين يرمونها بالنقص وإقبالة الشيطان، ليجعلوا من وجودها فزاعةً يقبضون بها على بلدٍ بأسره. في كل بيت امرأة لها كلمة وأغنية وآمال بعدد النجوم والخواتم.

وفي كل بيت:

• دمية..

دمى لها أرواح، تلبس، وتأكل، وتشرب، وتنام، وتكبر، وتذهب لأعمالها، وتحب، وتكره، وتوالي، وتعادى، وتعتقد، وأحياناً تؤذي وتنتقم.. الخ.

في كل بيت دمية، مرة نشترها للصغار كي نبكر لهم أصدقاء لا يؤذونهم، ومرة نكافئهم بها حين يمتثلون لأوامرنا، ومرة نأتيهم بها في مفاجآت الأعياد، وحين يمزقونها أو يخلعون أطرافها أو يجردونها من لباسها، نعاتبهم وربما توعدهم بعضنا أن لن يأتيهم بغيرها، لكنه لا يخفنا أن يصير صغارنا أنفسهم دمي.

- أريد هذه اللمحة، لمزة أخيرة - إذن تسرّبت من عتمة روحك! - اللمحة التي آلمتني - يكبر الغامض.. يكبر.

كيف تجرؤ!

هناك.. في انطفاء النور، في الظلام والسواد الفجائي، تفرد المخيلة جناحيها، ربما لأن هذه اللحظة الغامضة تنتمي لعتمة الكون الكبرى، لعتمة الوجود التي بقدر ما هي مبركة ومخيفة، بقدر ما هي شديدة الإغراء والجذب. تشبه المشي في غابة، دون الثقة لا بدليل ولا أثر. وأنت أيها الذي فكر بجراة لا تدري إلى أيهما أنت تمضي؛ للنهر أم للغول. تعرف فقط أن متعة السير ورؤية ما لم يره الآخرون وحدهما يجعلانك ترمي بالخوف خلفك.. وتصرّ على التقدم أكثر، وتحقق ذاتك وإنسانيتك أكثر..

الرسام العالمي التركي "أشرف أرماجان" كانت مغامرته مع الظلام أكثر غموضاً وتعقيداً، لأنه لا يرى، عيناه مغمضتان منذ البدء، لم ير شكل الأشياء، لكنه تعرّف عليها طويلاً حتى تخيلها، هذا الرجل عاش في كنف الظلمة لكنّه تخيل كيف يوحد النور منها، وقد فعل..

أشرف أرماجان يقول "لا أحد يمكنه أن يقول بأني أعمى، أن أستطيع أن أرى أكثر بأصابعي"، وقد آمن بكلمته هذه منذ كان طفلاً، لأنه منذ ذاك طفولته والبيوت والأشجار والشوارع والأنهار والغمام والوجوه التي نراها ولا يراها بعينيه.. لكنه كان وما زال يراها بأصابعه، وأعمق من هذا أنه يرسمها كما هي..

كم نحن بحاجة أن نتخلص من كل هذا الرعب من المقولات التي تقضي على كينونة الإنسان فيه، والتي يحاط بها كلما أقدم على الخيال والحلم فضلاً عن أن يقدم على التفكير والخلق.

ظِلُّ بلا قائم

1

- جناحان وحماسة؟ - بل نملة تقطع صحراء.. - مسافة وتراب؟ - قَلَّةٌ وحلاوة، جَلَدٌ وافتتان.

غريبٌ هو الكلام، وغريبة هي علاقة الإنسان بالأشياء.. غريبة بحجم غرابة خفايا الإنسان ذاته، وبحجم غرابة عالمه الداخلي، تلك العوالم السحيقة التي لا يعرفها، ولا يشعر بها حتى هو أحياناً، ولا يملك لها تفسيراً أو تحليلاً يقينياً.. ألا تحدث نفسك أنك بهذا الثوب تبدو أجمل، بالرغم من أنه ليس ثوبك الوحيد، وتحدث نفسك أنك بهذا القلم تجيد الكتابة أكثر، ومن هذا الشارع بالذات يجب أن تمضي حين تزور مكاناً خاصاً، وهذا الشخص.. هذا الشخص لا يعرف عنك أي شيء، ولا يشاركك بأي شيء، لكنك لا تريد أن تخلو أيامك منه، وتتنظر إليه في داخلك كأهم من كل أولئك الذين يقتسمون معك شؤونك، وتقول "إنني متعبٌ من مواجهة الحياة، وأحتاج سلاماً" ثم تفكر أنه ربما كان هذا الحياد الذي يمثله هذا الشخص هو الذي يمنحه هذه الخصوصية، ثم ترجع إلى نفسك وتقول إنني لا أفهم حقيقةً لماذا يصبح للوقت أحياناً معنى آخر مع أشياء وبَشَرٍ دون آخرين. فتدير رأسك وتسخر من نفسك، وتقول لماذا يجب أن أركض دوماً وراء التفسيرات.. أنا أعيش حالةً خاصة، هذا هو المهم، هذا هو المهم. وكفى..

مرةً سمعتهم، وأعني أولئك الذين ما زالوا يعيشون في ذاكرة حياةٍ ما عادوا يرونها الآن، سمعتهم يتحدثون عن امرأة جميلة، جميلة وبكماء. سمعتهم يقولون أنها منذ ترك القرية الكائن الذي تحلم به.. سكتت، ويوماً ما فكروا أنها إذا يئست منه ربما تكلمت، فاتفقوا على أن يكذبوا عليها، وحدثوها أن ذاك الذي هجرها.. مات، فابتسمت وتهلل وجهها، وفي أوج دهشتهم.. تكلمت، وقالت جملةً واحدة.. "أنتم من مات"، ثم قامت عنهم ومشت سريعاً،

واختفت، ليجدوها بعد حينٍ مبيتةً خلف حائطٍ أسفل القرية.. كانوا يقولون إنه آخر مكانٍ رآته فيه.

أليس كل ما فعلته هذه المرأة في حكايتهم تلك غريباً. أليست فكرة في غاية الجدية والعبث، في غاية الصدق والغباء، في غاية الفنّ والتهوّر، في غاية التعب والراحة، في غاية اليقين والحمق.. فكرة أن يكون الموت هو خيار اللقاء الوحيد.

وأفكر أن علاقتنا بالأشياء لا بد أن تحمل في جوفها صدمة، وإلا كيف ستطبع بصمتها فينا وعلينا، وحيناً تكون هذه الصدمة جميلةً وفاتنةً، وحيناً تكون مؤذيةً ومؤلمةً، وحيناً تكون صدمةً فوق إحساسنا العادي، أعني أنها تتسرب إلى سراديب نفوسنا وتجلس هناك في الزاوية دون أن نشعر حتى بها، لكنها في لحظةٍ ما تقفز إلى وجوهنا وتطفو عليها، يحدث ذلك حين نرى شيئاً أو شخصاً، أو نسمع صوتاً.. أو يلامسنا شيء ما، له حكايةٌ ما.

ألم يحدث أنك تذكرت فجأةً عينيّن، نظرنا إليك بشرود، وربما كان قد حدث هذا قبل وقتٍ طويل.. عيناّن لا تعرفهما، ولم تتعمد رؤيتهما، لكنهما تعيشان في داخلك للأبد.. وتنظران إليك.

2

- لم أتكيّف بعد! - أدري أنك شاجرت الهواء. - لم أقبل العالم، لا فائدة مني! - إذن هُوّة شاجرتك.

لا يكفي.. نعم لا يكفي أن يكون في الحياة امرأةً جميلة كل مرة، لكنه يلزم دوماً أن تكون هناك امرأةً أقسمت بالله أنها ضيّعت أجمل ما في حياتها بيديها، ثم قالت لمن حولها بعد ندمٍ طويل: إن أتمن ما تحتاجه الآن هو شرفةً صغيرةً وبعيدة، تطلّ منها على الزمن وتنظر للجبال والسحابة، وتترك صدرها للرياح تنفضه كيف تشاء..

ولا يكفي.. نعم لا يكفي أن يكون في الحياة رجل يحصل على أكثر مما يشاء كل مرة، لكنه يلزم دوماً أن يكون هنالك رجلٌ وحيد، لم يستطع أن تكون له حياةٌ ولا حلم. رجلٌ يجوب الطرقات وحده، لا يتعب من ذلك كل ليلة، وحين يمرّ يوماً ولا يفعل ذلك، يختنق ويتحسس الظلم يكبر في جنبه، ويضغط على أنفاسه، ويبخسه حتى حقه من هذا الهواء المتاح، والذي يوشك أن لا يكون متاحاً.

يا غريب..

لا يكفي أبداً بعد أن تخرج مخذولاً أن تقول لنفسك في نفسك "هذه هي المرة الأخيرة، الأخيرة.. ولن أعود.." لكنه يلزمك أن تمزق آخر قصاصة، وتبعثر كل جزء منها في مكان غير الذي قبله.. ولا يكفي، وأنت في أشد الظمأ، بعد أن تقذف بكأس الماء إلى الجدار، أن تسمع صوت الهشيم، لكنه يلزمك أن تمسك بعض فتاته، بدون حذر، وترميه مرةً أخرى.

يا غريبة..

ولا يكفي أن تنظري من نافذة السيارة وأنت ترجعين لبيتك ليلاً، لكنه يلزمك أن تقتربي جداً حتى تلامسها، وأن تضغطي بكفك على الزجاج حتى تتركي أثرها عليه بعد أن ترفعها.. ولا يكفي أن تكوني حزينةً، لأن أحداً لم ينتبه لحزنك من بين كل هؤلاء الخلق، وإنما يلزمك أن تكوني وحيدةً.. حتى وأنت بين البشر.

يا غريب.. إن شئت أن تعود بريئاً وخالصاً ونزيهاً، كأنك جنينٌ هزيل، لا أمه ولا الطبيب يتوقعان حياته، نعم إن شئت أن تعود بلا ذنب مثل جنينٍ لا ينتظره أحد، فإنه لا يكفي أن تتوقف عن الكلام، لكنه يلزمك أن تكون بلا ذاكرة.. أن تكون فراغاً.

ويا غريبة.. لا يكفي أن توصي الباب، وتطفئي النور، وتتمددي على فراشك. لا يكفي أن تضعي يديك خلف رأسك، وتذكري ما ترغبينه ولا سبيل إليه، لأنك تعرفين أنه هناك على

الرف الذي لا تطوله يداك.. لا يكفي أن شعري بالأسى، لكنه يلزمك - على الأقل - أن تنسي كل الشبابيك التي أحببتّها.

3

- بقلبي نقطة ممتدة، قطرة أسئلة.. - وشم أو وَحْمَة؟ - خَلْقَة. - لو أني مكانك لفعلت شيئاً آخر غير الصبر.

قبل أن يكون الكلام كان هنالك الجسد، وقبل أن تمتلئ الأفواه بالحروف كان الإنسان قديماً يخاطب الوجود بجسده.. فيفيض من رأسه إلى صدره إلى جنبه إلى يديه إلى رجليه، وحين يدهم الجزع مجموعة من البشر كانت تلتف على بعضها، وتعبّر عما بها بلغة جسدية مشتركة، وربما كانت هذه حكاية مكررة لأصل رقصات الشعوب التي ما كانت تكذب في وصف ذاتها، كان هذا قبل أن تصبح الأصوات كلمات.. هذا أثر قديم جداً، حينما كان الإنسان لا يغش، ولا يزور، حينما كان يتكلم بجسده فحسب، وحينما كانت الشعوب تعبر بأجسادها فقط.

ويوماً ولدت الكلمات، وكثرت شيئاً فشيئاً، وطغت الثرثرة على الحياة، وصارت غالب الأجساد بكما، وأهملت رقصات الشعوب، وصارت الألسنة الخداعة تتكلم عن ضمائر الناس، وبقي القليل من البشر الصادقين يتكلمون بأجسادهم حين يفضح العجز الكلام..

عرفت رجلاً كان يدعى "أبو عذابه"، وكان ينادونه بهذا الاسم لمدى قفزاته عالياً كالمعذب. ذلك الكهل الذي يقارب السبعين كان دون بلاغة ولا حجة، ولم يجد كل حياته طريقة يواجه بها ما يحسه من الجور سوى الرقص، وحتى الأصوات الغريبة التي يصدرها وهو يجول أمام الناس كالأسد لم تكن كلمات، بل كانت هديراً وحنيناً. وهو يقفز عالياً عندما

يرقص كالملدوغ. كنت أراه وكأنه كلما تذكر شقاءه تعالى عليه وطار في الهواء، ثم يرجع ليدهسه بقدميه، وكأنه يصرخ أنه لم ولن يكون الرجل الذي تهزمه أيامه.

4

- لا أصدق! - مه؟ - إذا رميت سبع حصيات، فثلاث منهن سيخلقن شكلاً - يا جنّي - يخلقن شكلاً وكذبة.

ولدٌ صغير بهلوساتٍ كبيرة..

وهذا الولد ساخن الطبيعة، كثير الانزواء.. لكنّه يفعل ما يرغب، ولا يأبه لما سيكون عليه الآخرون حياله.. ولكنّه أيضاً، حين يكبر، سيفعل ما لا يرغب في أحيان أخرى، ولا يأبه لما سيكون عليه حيال نفسه، وحين لا يأبه لما سيكون عليه حيال نفسه، يدرك أن شيئاً مسموماً يتكدس في داخله، فلا هو يتقيأه، لأنه يعتبر التقيؤ عاراً، ولا هو ينسى.. طبعاً لا ينسى، إنه يشدّ على رأسه لحاف صمته القاتم فحسب.

ولكنّه كذلك حين يكبر سيعرف أن ذكرياته المحقونة بالعناد، والإفراط في تحريق جوفه أقل مما يؤهله لانهيأر شجاع وسريع، ولكنه أيضاً حين يرى أن الانهيأر أجبن من الرغبة، يسخر من حياته التي تشبه الكوابيس والهلوسات، وحين يصحو لحظةً يتذمر كثيراً، ويسأل "لماذا لا تحدث الأشياء إلا في النوم."

هذا الولد يخجل جداً، لكنه أدرك أنه إذا لم يكسر قفل الباب ربما توتر وخاب تماسكه، ولكنه مع ذلك - حين يتفتت القفل - يجلس بين أشلائه ويقول شعراً طفولياً كثيراً في نعيه والحنين إليه، ثم يجمع أجزاءه من جديد، ويحلم لو أن ذات القفل يعود ويعمل، ودون أن يتذكر شيئاً عن المقت والغضب والأغلال.

ويكسب أحياناً هذا الولد الصغير، لكنه أيضاً لا يستاء من الخسارات، ولكنه حين يجلس على كومة أيامه، وينظر إليها بعينين غارقتين بالذهول، يغير جلسته ويقول "اللهم علم

الصغار، ولا تكسرهم".

هذا الولد يخرج أحياناً، لكنه يمتنع عن المقعد الذي في المنتصف، ويؤكد لنفسه دوماً أن هذا المكان ليس له، وأنه لا يمكن أن يجلس إلا في مكان لا يلمس فيه، ولا يجرؤ أحد أن يقترح عليه النهوض إلى غيره، ولكنه، ويا لشقائه، حين يجلس في المكان الجانبي، لا يتوقف عن الخوف من الخدعة، ويفكر: "ماذا لو كان هذا المكان هو المنتصف."

هذا الولد الصغير أيضاً يقوم إلى طريقه كل صباح، يغسل وجهه كي يفيق، لكنه يرى شيئاً ما في المرأة يشبه الخرافة، مثلاً.. يقطع الوادي وحين يصيحون عليه "السيل.. السيل" يمتنع عن الركض، ويعتبر الهرب من الموت خزيًا، وبدلاً من أن يقطع الوادي، يعمد إلى عمقه، حيث يمكنه أن يميز التراب والشجر والحياة.

لكنه.. لكنه.. لكنه.. لكنه.. لكنه.. لكنه.. لكنه.. لكنه لا يموت، والسيل ينشق عن جانبيه، ولا يلمسه.

5

- لاي حدّ قد تطول القصص؟ - بقدر ما تنتهي فوراً.. - هذه حيلة! - لا، لَسَعَة.

تريد المرأة، أية امرأة، أن تكون كل شيء، من الصوت حتى قوس قزح، ومن الزمن حتى ارتطام الريح بالنوافذ.. تريد أن تقول دوماً أنها الأرض والبذرة وماء الغيمة، وأنها يد الفلاح وظهره، وأنها كينونة الجذوع العريضة والظلّ. المرأة كائنٌ صوتي عملاق، لأنها من أصل خلقتها جاءت مفتونةً باللغة، وقلبها معلقٌ كقرط في أذنيها، ولا يمكن أن تخلد المرأة يوماً للصمت إلا وقد هزمها مصيرها، وصارت روحها صماء، ونفسها كفيفة.. وعندها فقط تفقد شهية الكلمات.

- متى ارتطمت بمياه الجدول؟ - وأنا أعبر الردهة - إذن، كان للرياح أن تمرّ بتلك الخفة وتلفح صدرك..

ما هي اللغة؟ وما هي الكلمات أي كلمات؟ وما القوة السحرية التي تكمن فيها فتجعل هؤلاء الناس يبكون، ويؤمنون، ويحبون، ويكرهون، ويقبلون، ويعتدون.. وكل هذا يحدث باللغة، ما اللغة؟ وما الكلمات التي تنفذ فيهم وتتغير حياتهم بها؟

السّر كاملاً يكمن دائماً هناك، في ذلك الجحر الصغير من القلب، في ذلك القمم المخيف، ذاك الذي يسمى "اليقين".. والكلمات المشحونة بأعمق ما فيه من صدق بوسعها أن تعجن الأرض مرةً ومرةً ومرة، وأن أولئك الذين يقبضون على هذه الكهرباء الحارة من الصدق في كلماتهم، هم من تبقى كلماتهم وأصواتهم وآثارهم ما بقيت الحياة.

الكلمات.. ليست مجرد صورةٍ أخرى أو وجهٍ رديفٍ لشيءٍ في النفس، لكن الكلمات هي وحدها التي تحن إلى بعضها، وتتنادى حتى تبتني لها زاويةً بعيدةً في الروح، عميقاً حيث تفيض النفس الإنسانية بما تطفح به من أوجاع، وهواجس، وكوارث، وأحلام، وتناقضات.

حين تنبجس الكلمة الأولى بصدق فإن الروح والجسد يكتئبان بالرغبة، وعندها تتنامى وتتنامى غريزة الكلمات حتى يقع الخلق، وترتعش الأطراف ويقشعر الجلد.. ثم تشعر الروح والجسد معاً بالاسترخاء والأمن، والحاجة للخلود إلى نومٍ غائر وجليل.

الكلمات.. شعورٌ حارٌ ومجهولٌ بأنك تخاطر نفساً بعيدة جداً في هذا الكون، نفساً في ظلمةٍ أخرى، وفي ملكوتٍ آخر.. وتقول كلماتك وأنت بيقينٍ كاملٍ أنها لا تنتظر كلماتك فحسب، بل تسمعك أيضاً، وتكاد.. تكاد ترى عينيها كيف تدبّ على نبراتك لحظة تنطقها، وتتخيّل أنها - تلك النفس - تنتابها حالة ظمياً وعذابٍ لا تفهمها.. لا تفهما تلك النفس ولا أنت، ولا تها كل

الكلمات التي تلتصق بحائط القلب كالأصباغ، وتؤثر به وتحني نياطه، وتجعله يتكرمش ويحشر بجسمه بين الأضلاع، كأنه سيمضي إلى نهايته.

7

- لا طائل من هذا الغَبَش - أَسَاك.. حيوانك الذي لم يُرَوْض - أضحك من أعماقي كبيت مهجور - وتعدّ الخدوش في مقاعد الخشب
قائمة بأشياء على الرّف..

على رّف الأيام: الأصدقاء المحرضون على الوثب، الذين يفركون عقولهم ببعضها، ويذكرون بعضهم دوماً بالجوع الجميل إلى المعرفة والجمال، الصحب الذين لا يستنون أظافرهم بعناية، ولا يجربون أثرها جيداً حين تسنح الفرصة في ظهورنا، الأصدقاء الآخرون الذين لا يلبسون الأقنعة ولا يرمون بالحجارة من خلف الكتيب.

على رّف النسيان: قصص كثيرة، وتاريخ لم يكتب، وأشياء بمعنى التاريخ الذي لم يكتبه التاريخ، مثل الطرقات، وبيوت الطين، وأعراس القرى، وأناشيد الفلاحين، ورائحة السقاء والتربة والتمر، وكثيراً من الموتى الذين لا يجدون من يكتب عنهم أهم كانوا أبطالا ومختلفين.

على رف البيت: الآباء الذين لا يخطفون خيارات أبنائهم، ولا يصادرون تطلعاتهم، الآباء الذين لا يأبهون لمعايير القبيلة ولا التطرف، الآباء الذين يطلقون أبناءهم وبناتهم خلف العلم والحياة والفنون، الآباء لا يأنفون من فهم حديث أبنائهم، وما يتحرك في زمنهم، وعلى ذات الرف أمهات عظيمات لا ينتقم من تعاستهن في فلذات كبودهن، فيقفن في وجه كل سعادة، وفرصة سانحة لحياة أخرى، مهما كانت صغيرة يمكن أن تحلم بها بناتهن، أمهات.. لا يملأن بيوتهن بأكوام كبيرة من النقمة والضجيج.

وعلى رّف الحبّ: حبيبان لا يتكلمان كثيراً، ولا يبتذلان ما بينهما بتذويب ذاتيهما، حبيبان يخافان من الندم، ويحترمان الاستقلالية التامة.. الحبيبان اللذان يفكرن بلغة الوقت، وواثقين فقط باللغة التي لا تقوم على الصوت والحروف.. بل على الفعل الصادق، المحاط بالصمت والأمل.

8

- كانت البارحة مغارة.. - وكنت حارساً أم قذحةً بين حيدين؟ - أحفر مقدار كّف، وأزرع عشباً - ليالي لم تنم! - لكن المنامات تقفز، مثل صغارٍ على فرشهم.

ليسا في عمرٍ يقل عن الثمانين أبداً أبداً، وربما كان الرجل بالذات أكثر من هذا بكثير. كانا يحملان وردتين، وفي يد الرجل كاميرا تصوير فوتوغرافية، مذبها إليّ بابتسامة تطفح بالأبوة، راجياً أن ألتقط له ولها صورة، وهما يقفان مديرين ظهريهما للنافورة.

فعلت.. ولو هلة أمسكت بالكاميرا، قبل أن أعيدها إلى ذلك الرجل المسنّ، وأخذت أحدق في الصورة التي التقطتها بامعان، فرأيتها واقفين بعطيش شفافٍ جداً، وظهرا وكأنهما ملاكين مكسّوبن بالردان، وكأن الماء القافز في السماء لا ينبجس من النافورة، وإنما من بين أكتافهما. وأنا أحدق في الصورة لو هلة تخيلت، وهما ينظران لبعضهما، أنهما التقيا منذ ستين عاماً على الأقل، يومها كانت هي في مطلع العشرين، وربما كان هو في آخرها، وأنا أنظر للصورة أيضاً تخيلت أن تلك المرأة وبعد ستين عاماً، كانت تقف، وعيناها ووجهها المجعد، وشعرها المنهك، وملامحها المعجونة بالأيام تسأله: ترى إلى أين صارت الأنفاس الأولى الآن؟ هل لبدت على حائطٍ في قرية؟ أم حطت على بقعة خضراء؟ أو تمددت على شرفة؟ أم تراها علقت بسحابة واتحدت بها، وأخذت تعبر السماء من جوّ إلى جوّ؟

وتخيلت أن الرجل بعد ستين عاماً يجيئها بظهره المعكوف، ويديه الراعشتين: "أو ربما تسللت إلى تربة في حقل، ومشت في عروق شجرة، ونامت هناك."

الصورة، الصورة.. كانت المرأة في الصورة تبتسم، وكان الرجل يشد فمه للوراء بقوة، ويحاول أن يرفع حاجبيه من فوق النظارة بعدستها الكثيفتين، التي تملأ وجهه، يحاول أن يرفع حاجبيه وكأنهما عبء ثقيل على ملامحه، لينظر إلى الكاميرا. تخيلت أنه كان يقاتل كي يظهر في الصورة كما كان يظهر عشرات السنين. تخيلت أن هذا المشهد بالذات ربما يشرح شيئاً صغيراً، من ذلك الكم الهائل من المفارقات التي تلون كل علاقة يطبخها الزمن طويلاً بين اثنين. كأن المشهد بتلك الكيفية يوشوش بأن المرأة كل حياتها تسأل غالباً: كم مضى؟ ويسأل الرجل كل حياته: كم بقي؟

كان الرجل بيدين مسبلتين، وقدمين متقاربتين، وكانت المرأة تمسك الوردة بيديها الاثنتين، وقدماتها أكثر انفراجاً، وتخيلت أن الصورة تطفر بالوداع أكثر من الحب والذكرى، وأن الرجل بالذات، صار في كامل جاهزيته ليذهب نحو الطين، وأن المرأة ما زالت تقبض على الورد. كان المشهد يهمس أيضاً أن الرجال غالباً ما يخرجون أولاً من الحياة، وأنهم أولاً يذهبون إلى المرقد.

كانت العجوز بملابس ملونة، ولم تقل شكراً.. اكتفت بابتسامة بعيدة، وكان الكهل بملابس بيضاء، بلون واحد، هو الأبيض، وصافحني بحرارة، وقال شكراً عدة مرات بحرارة. وهما يذهبان كان هو فقط من لوح بيده. من يدري، ربما كانت مجرد صورة.. مجرد صورة.

رجلٌ صلب.. توشك الأعوام التي تمضغ كفيهِ أن تنطق لتسأله بعتبٍ؛ أن يخرج رأسه قليلاً من حرب الليل، كي ينام خالياً من عنائه ولو لمرةً واحدة، لكنه حين خفض عينيه لثانية، داهمته هواجسه التي يصارعها بالصمت والتحديد..

يهجس بالحنين الشرس، الذي يعبر إلى قلبه كلما هاجت رائحة الشجر الذي زرعه بيديه، ورافقه حياته يوماً بيوم.. الحنين الذي يصادفه في الطرقات التي طالما مشاها، ولم يخطر بباله أن يوماً سيأتي وتذهب الطرقات.. الحنين الذي ما زال يقفز في قلبه بالأصوات التي مست روحه واطمأن إلى نبرتها وصدقها.

يهجس بالندم المرّ منذ ترك لسطوته أن تغرس نابيها في النفوس الهشة، التي ضايقته، ويتمنى لو أنه تأمل قوته قليلاً.. لو أنه ترك لمهابته أن تلاحقهم طيلة أعمارهم، ولو أنه بساعديه الكبيرتين لم يهشم رؤوسهم الصغيرة.

يهجس بالحب الذي أعرض وصرف عنه وجهه مراراً، وكان قد تخيل دوماً أن الحكايات اللينة تنال من جبهته.. يهجس بالحب ويفكر في الأجفان التي حلمت به، ويعتذر لها واحداً واحداً.

يهجس بالمصائر التي تكبر في ظلّه، وتنام بكامل طمأنينتها بين حاجبيه، ويهجس كيف ستفعل هذه الأرواح الكثيرة من حواليه، حين تطلق صوتها يوماً لتناديه.. فلا يجيب.

يهجس بخجله من وجوه رفاقه الذين سبقوه إلى الطين، ويودّ لو رجعوا ليذكرهم أنه هو الذي كان يفتح الأبواب قبلهم، ويدخلها قبلهم، ويواجه مقاديرها قبلهم.. لكنه لم تكن له من حيلةٍ في هذا الباب.

يهجس بالكلمات اللاصقة في جبينه؛ هذه الكلمة سمعها من والده، وتلك الكلمة سمعها من خصم نبيل، وكلمة سمعها من صديقٍ قديم.. وكلمة أصابته دون أن ينتبه، سمعها من عابرٍ، رآه لمرةً واحدة.

يهجس بالظنون التي قضمها العمر ولم يتيقن مما يختبئ في جوفها، ويعرف أنها مضت إلى حيث لن يقوى عليها.. لقد غرقت تماماً، وهي الآن تقهقه في قاع الفناء. يهجس بالخيبة التي تتراءى له كلما نظر إلى الحصن الذي بناه لبنةً لبنةً، ثم لا يتراءى له من يجسر على الموت دونه من بعده.. يهجس بحصنه المخضب بتعبه وأحلامه، ويطلب من الله أن ينقذه.

ويهجس بموته، ويقسم بالله أنه لم يخف من الموت ذاته أبداً، لكنه يخشى أن يخرج من هذا العالم بطريقةٍ لا تليق به.. يخاف أن يمضي محاطاً بالشفقة، وهو الذي عاش عمره كاملاً كسورٍ شاقٍ.. ويهجس أن ليس سهلاً أن ينام الرجال الذين عاشوا حياتهم كحرب.

10

- بأي مَسِيل تعثرت الحكاية! - ربما بلهافةٍ ميزاب.. - ربما على باب حانة، - أو السيل.. تجمع الشربة شجاعته فيها وتعبر.

لقطة لثلاثة جائعين، جاؤوا من منتصف الليل إلى بهو أحد الفنادق، مكثوا حتى الظهيرة، ناصبين فخاخهم حتى أقصى ما تصل إليه نظراتهم الموحلة.. وفركوا "بلوتوث" هواتفهم، وكان بأيديهم المصباح الذي ينام فيه مارد الأمنيات.

لقطة لشخص كبير السن، لكنه يظهر مُخرَجاً.. فعندما كان في سنواته الأولى، كان يحلم في منامه دائماً أنه شاشة تلفزيون، وأن ملايين من الناس ستراه، وأن سَحرة الكهرباء سيضيئونه كي يشتغل. المسكين كان يستيقظ فرحاً من منامه، ومع ذلك كان يستعيز بالله من الشيطان والكهرباء، ولا يتحدث عنهما أبداً، لكنه بقي حتى اليوم يحلم أنه تلفزيون، وأن الشاشات في كل مكان تصبح على شكل وجهه. طبعاً لا أحد يتوقع رغبته تلك، لكن ذلك الحلم يتمدد في قلبه كل حياته. كان يخاف أن لا يتحدث الناس عنه، لكنهم اكتشفوا أخيراً أنه مُخرَجٌ جداً من الأحلام والكهرباء.

لقطة لطفل، لا يرى بعينه، لكنه يستطيع أن يبصر بصوته، وبينما هو يحرك رأسه، كان يبدو وكأنه يضع يده في ظهر امرأة، ويدفعها لتمشي للأمام، كان لحنجرته عينان، ولم يكن هناك سوى الصوت.

ولقطة.. لاثنين صادقين، لم يلتقيا في غير وهم واحد، ثم افترقا طول العمر، لأنهما آمنا أن كل خطوة صادقة خلف المعرفة والحقيقة، تجعل المرء وحيداً أكثر.

11

- تلك النجمة البعيدة، لم تُرهقها اللمعة، - لم يقض عليها احتراقها والوحدة.. - وملايين السنين تحك جنبها ولا تدبل، - عمياء عمياء، - محكومةً بطيش الوجود، بلا جدواه!

ماذا عن الوهم؟ يخطر ببال أحد ما شيء خاطف، يمرّ سريعاً دون أن يستغرق جزءاً من ثانية، ولأن الإنسان مخلوقٌ معقد التركيب، وفي أعماق نفسه عوالم مجهولة لا نهاية لها، فإن هذا الشيء الذي خطر في جزء من الثانية يلبد هناك في أقصى الذاكرة، وينام هناك، ويبقى احتمال استيقاظه وتذكره في أيّ حين مفتوحاً طول العمر.

نظن أننا ننسى. أبداً لا شيء للنسيان، لكن ما لا نتذكره هو تلك الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً التي غاصت عميقاً في بئر سحيقة من تجويفات الذاكرة، بحيث لا يمكن للذهن أن يطالها في حالته العادية، لكن وفي لحظة انفعالية من لحظات حياتنا، يقفز شيء من تلك البئر، كئنا قد رأيناه أو سمعناه، أو شممناه أو لمسناه أو حتى تخيلناه، أو.. أو حتى لو كان مجرد خاطرٍ صغير عبر في دواخلنا في جزء من الثانية.

فلانة أو فلان.. في لحظة غير مستقرة، يلوح بذهنه خاطرٌ كان قد مرّ به يوماً ما، لكنه هذه المرة صار أكبر قليلاً، يكون قد استغرق من وقته ما هو أكبر من جزء من الثانية، وفي لحظة أخرى يعود هذا الخاطر ويكبر أكثر، ويستغرق من الوقت أكثر، وفي لحظة يكبر ويكبر، ثم لحظة ولحظة وحتى يصبح ذلك الخاطر الذي مر يوماً ما في جزء من

الثانية.. هاجساً لا يفارق صاحبه، ثم يكبر هذا الهاجس أكثر فيصير شكلاً للحياة.. وأخيراً يصبح مصيراً كاملاً، وهو الذي كان أول الأمر مجرد خاطرٍ لم يستغرق أكثر من جزء من الثانية.

عندما يستسلم الإنسان للوهم فإنه يزور كل شيء في حياته، من حقيقة اعتقاده بمعنى وجوده وقيمه ومدى بؤسه ورضاه، وحتى إحساسه بطعم الماء. سيقول كل من ينجو من الوهم؛ عندما استيقظت من الوهم، وخرج رأسي من تحت قبضته الرهيبة تغير طعم كل شيء في الحياة، حتى جرعة الماء.. لقد عشت ظامئاً كل تلك السنين..

12

- أهي حمى أم حمرة! - لو قلت؛ شقيقة نعمان.. - أهو شهيقٌ هذا الذي بصدري أم رائحة! -
لو قلت؛ الأيام التي تجلس في جحورنا، الضباب وهو يسيح بلا عمد..

تقدم الأعمار لا يعني دنو الأجل. هذا فهمٌ ساذج، الموت مسألةٌ مجهولة، الموت ليس قضية ولا شيئاً، الموت حقيقةٌ فجّة تمنح الحياة معناها دون أن نعرف ماهيته.

الذين يحبون الحياة على وجهها الحقيقي لا يريدون أن يكبروا، مهما كانت أقدارهم وحياتهم صعبة، أو على الأقل فإنهم يحاربون بكل ما يستطيعونه للحفاظ على إحساسهم بالصغر، لأنهم يدركون جيداً أننا عندما نكبر تضيق الهدايا. عندما نكبر يتسع القلق وتنكمش الأحلام، وعندما نكبر نبدأ في قول ما يجب أن يقال، وليس ما نرغب أن نقوله، ونفعل ما يجب أن نفعل، وليس ما نرغب أن نفعله.. عندما نكبر يدخل الآخرون حياتنا شيئاً فشيئاً، ويقضون فردانيتهم وملكيته واستقلالها شيئاً فشيئاً.

لحظة لحظة.. لا يعني أننا نكبر أن يتقدم الزمن بأعمارنا فحسب، لا لا، هناك شكل آخر، أعمق خسارةً وهزيمة؛ وهو أن تكبر أسماؤنا وقيمتنا ومناصبنا وشهرتنا. هذه شيخوخة

مؤذية. وتخيّلوا.. ما أقصر حياتهم، الذين يولدون كباراً، معزولين عن الشوارع والأشياء وكواليس الحياة الحقيقية، يسمعون عن التفاصيل والحكايات ولا يملكون ولو قدراً عابراً لرؤيتها، يسافرون إلى بلدان لا يعرفهم فيها أحد ليمشوا وحدهم على الأرصفة التي لا يقدرّون على المشي عليها في بلدانهم، ويلمسوا التراب بباطن أقدامهم وأيديهم.. ذلك التراب الذي لم يستطيعوا لمسه في أمانهم. إنهم يسافرون آلاف الأميال ليتخلصوا مؤقتاً من كونهم ملعونين وأجنحة حياتهم مقصوصة.

عندما تكبر بأي اتجاه نستحي من الحلوى والسكر، ثم نخاف منها عندما تكبر أكثر. أن تكبر في أعمارنا أو في شخصنا وقيمتنا يعني أن نحذر من حلوى الحياة وسكرها أكثر.

13

- أصدّق ما يرتجف.. - ما يرقص؟ - ما يقشعر

حتى وإن جفت وديان قريته، إلا إنها لم تنقص قطرة واحدة من حلم الوديان التي في نفسه، وحتى وإن هجمت الشقوق على جدران البيت الذي ولد فيه بقريته، إلا أن حلم البيت الذي في أعماق روحه ما زال على صورته الأولى، وما زال يسمع تهليل أمه وصلواتها بين جنباته كل فجر، ويسمع أغنياها التي تتشابك مع خيوط الشمس من كل نافذة، وحين يسمع صارخ العرصة وإيقاعاتها تتطاير من جبهته السنوات كالعصافير في الجوّ، ويرفع كلتا يديه عالياً ويشرع في الرقص..

14

- لا لا، علامات البدن لسن حواف الروح! - شيء رجراج.. - لا لا، قد يزلق الجسد - قد تزلق الروح

انظروا للندبات التي بأجسادكم، وامسحوا بعيونكم على الأشكال التي خلفتها الجروح التي في أيديكم أو في أقدامكم، تأملوا بقايا الحروق الصغيرة التي مست جلدكم ذات يوم قديم.. سترون أنها كبرت معكم، عاشت معكم كل حكاياتكم دون أن تنتبهوا لها، وربما كانت هي ما سيبقى منكم في ذاكرة الآخرين بعد أن تذهبوا عنهم. هذه العلامات لم تأت معنا حينما أتينا من بطون أمهاتنا، لكنه الزمن ألقاها علينا في لحظة ما. ربما آلمتنا يومها، لكننا ألقناها أخيراً.. حتى إنها صارت جزءاً من أشكالنا، وأحياناً صارت هي أيقونة شكلنا وجاذبيتنا في نفوس من حولنا.

الأجساد التي لم يضع الزمن يده عليها بأي أثر.. أجسام لم يعترف بها الوقت، لم يعرها أهميته وكيمياءه. لقد بخل عليها بالقصص اللاصقة بالجسد.. هناك بالفعل قصص لاصقة بجزء ما من نواحي أجسادنا.

15

- نرجع إلى شجرة مخدوشة في ساقها - كوعاء يغلي - أمسه؟ - إذا تحاشيته من ناحية يلسعك بأخرى

تسلب الأشياء المتماسمة بعضها بعضاً، هذا ناموس الكون. كراسي المازة تسلب شيئاً من أثر الجذوع والتلال والحيطان. الطائرات تسلب شيئاً من رحيل المشي والحكايات. في الطائرة وأنت تمضي من مكان إلى مكان، لا ترى فيها غير الجالسين يميناً ويساراً، وقليلاً من السحب عبر النوافذ، والطاقم المتململ الذي سافر حتى فقد السفر عنده معناه. كلما تماس

شيئاً أخذ أحدهما من الآخر شيئاً، هذه هي الطبيعة، لكن الذي يسلبك كل شيء.. ليس سوى معتدٍ وسارق.

ثم إنك حين تنتمي للحياة وتعمل لها، فهذا لا يعني أنك تنكر حقيقة الموت، لكنك تحاربه. انتماؤك للحياة هو اختبار جدواك وقيمة وجودك، الحياة اختبار إنسانك الأطول، ليس الموت الخارج عن الزمن، فالموتى لا يعودون إلا في منامات الأحياء، لا يسعهم أن يفعلوا شيئاً من جديد، ولا شيء أمامهم سوى أن يوغلوا في التراب حتى يصيروا تراباً. ومشكلة بعض المقولات التي تلبس طابع القداسة أنها تقف على هذه العتمة، على الهلع الإنساني من الموت ومجاهيله وما يرمز إليه، تقنع أتباعها بأن الموت هو امتحانهم الوحيد، ومفرداته - قولاً وعملاً - هي دون غيرها، وسيلتهم كي يحصلوا على ما يطمحون له من الامتياز والقوة، من الوضاعة والنجاة..

قبل عامين توفيت وانفاري ماثي، الكينية التي يسمونها "أم الأشجار"، وهي أول كينية/ أفريقية تنال جائزة نوبل للسلام في العام 2004 وهذه العظيمة أسهمت خلال حياتها في زرع 40 مليون شجرة في كوكبنا المحاصر بالأكاسيد. هذه امرأة نادرة، وكانت هذه طريقته كي لا تكون وحيدة أبداً..

هذه السيدة ربما فكرت أن تعيد للحياة شيئاً عميقاً سلبته المادة منها، أرادت أن تعيد اعتبار الحياة من لصومية المصانع وجشع البشر.. وأخيراً تركت خلفها أربعين مليون شجرة، كل واحدة منها لها حيّز وظل ورثتان، تمتصان سمومنا، وتنفخان فينا نفحة البقاء، وهكذا صارت الشجرة في كينيا رمزاً لحق العيش، على يد هذه المرأة.

16

- انفرجت أيادٍ على أحضانٍ لا تراها! - يكبر الزهر وليس له عينان. - الأحضان لا تسمع.. - ولا يبصر الزهر

هي القصة الدائمة.. القطعان الحية، كل القطعان يحدث أن تظماً، وفطرتها وصغارها وحقها في الوجود يدفعها نحو الوادي أو البركة، وبينما الصياد بين وحوشه وفي غابته مُهدد وجائع، ويرى إلى نفسه وإلى صغاره وذويه يحدقون في يديه الخاليتين، فيحمل بندقيته ويخرج إلى الوادي أو البركة نفسها. القطعان والصياد كلاهما هرع إلى الماء ليفتش عن فرصة لوجود وبقاء أطول. وعلى حافة الماء التقيا.. بهدف واحد التقيا؛ القطعان والصياد، وأحدهما بالتأكيد لن يعود. قد يخطئ الصياد برصاصته مرة، وربما يصيب مرة ومرة ومرة وألف مرة، لكن هذا لن يفيد، فالوجود ذاته قضى بأن القطعان مهما قتلها الصيادون فإنها ستشرب وتقتل وتهرب، ثم تعود لتشرب وتقتل وتهرب، لكنها أخيراً ستعود وتبقى، تشرب وتهرب، ورغمما عن الخوف تعود وتبقى لتشرب..

الكتابة عن كل هذا الدم مغامرة فظيعة وموقف جبار!

17

"عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى.. وصوت إنسان فكذت أطيّر"

الأحيمر السعدي

بهذا الشرق المكتظ بالفساد والحروب والدماء.. يفكر الكاتب أن الكتابة تصير في أحد أشكالها استياءً، والاستياء احتجاج، وقلّة الرضا عن الواقع. تلك الحالة من فقدان التصالح مع الوجود والنفس وحتى الكتابة ذاتها. والذي يعبر في طريقه بهذا الأسى لن يتخلص أبداً من استياءه، حيث يصير هذا القلق مادته وجمراته، دون أن يقصد بذلك العداء لشيء أو أحد، وإنما الذهاب بعيداً في مراجعته لقيمه ووجوده ونقده الدائم.. وبهذا الشرق ما من أحد لا يحلم بحياة مختلفة ومفارقة، والمشغولون بالفنون والكتابة هم أكثر الناس إيغالاً في حلم كهذا، وأعني بالحياة المختلفة تلك التي تخرج عن حياة السواد، بشرط كرامتها

واكتفائها، وليس لمجرد المفارقة والخروج، لكن الزمن الضاغط الذي يعيشه الإنسان في الشرق، يجعل من هكذا حلم شيئاً مثيراً للشفقة وأحياناً للسخرية.. ومرةً أخرى فإن أكثر الذين ينساقون خلف عنادهم ويصرّون على الحلم بهذه الشفقة والسخرية هم أهل الكتابة والفنون.

وبما أننا نعيش في بلدان المشرق، في هذا الجزء المريض من جسد العالم وروحه، فإن الفن والكتابة بقدر ما يصيران إيغالاً في مهاجمة هذا الواقع والصراخ بوجهه وكشفه حتى سحيقه، بقدر ما يصير الفن والكتابة في اللحظة نفسها هرباً من شراسة هذا الواقع وعدوانيته. الهرب الأسيان إلى معنيي الفردانية والحرية في رواية أو قصيدة أو لوحة.. الخ، عوضاً عن فقدهما داخل البيت والحَيّ والمدينة والمجتمع والنظام.. وبالضرورة فإن الإنسان المأخوذ باستقلاليته حين لا يجد من حواليه سوى من يسعى لنهبها فإنه يضطر إلى أحد طريقتين؛ إما الرحيل إلى الخارج، أو الانكماش إلى داخله وعزلته وعالمه الخاص، ليضمن الابتعاد عن البشر، وبناء جدارٍ عازلٍ ما بينه وبينهم، لا تعالياً أو جُبناً.. ولكن كي لا ينالوا من اختياره ولا سلامه.

في هذا الجزء من العالم، في هذا الشرق المرتبك، يفهم الكاتب أن أجمل ما تفعله المعرفة والفن والفلسفة بداخلنا.. هو أقسى ما تفعله في الوقت نفسه، إنها تقذف بنا إلى العزلة ثم تجردنا شيئاً فشيئاً من الأوهام لنواجه هذا الكون كله فرادى، دون الاختباء خلف خرافةٍ أو ثقةٍ بشيء جاهز.

18

- ممّ تجيء قلة الحياة؟ - ممّ؟ - من ضيق الخطوة - وممّ تضيق الخطوة؟ - من قلة الحياة.

زرت مدينةً، كانت قد حفرت مكانها في صميمي، واجهت بها أشياء تشبه عودة الخلق لصيغته الأولى، كأن الطبيعة انتهت من إحدى دوراتها، وها هي في مطلع دورةٍ جديدةٍ وبكر، أشياء كنعكة الشتاء وروائح الأشجار المبللة، المشي في الليل بلا أعمدة ولا إسفلت.

تلك الألفة البدائية في برودة الجوّ وقطرات المطر، الوجوه المثقلة بالحب والكدر، الأيدي التي لا تتعب من تبادل السلامات والتحايا، في الحيطان والمقاهي، في الألوان الغضة التي تلف أصداغ الأطفال، في تنوع الحياة البديع، في الشبابيك والأزقة النديّة، في تحديق كبار السن وحفّ البنات.. الغناء والرقصات الشعبية، وجلال الوجد المتجذر فيهما. شيء ما كان في تلك المدينة ينسرب إلى الروح، شيء عتيق وغامض وروحاني، يملأ الدواخل بالسكون والسلام، بأعمق ما تعنيه خضرتها من الإيواء والطمأنينة والسكن..

لا أعرف كيف يمكن اختزال مكانٍ ما في كلمات، مهما كانت كثيرة ومثيرة، في هذا كثير من الظلم، إن مكاناً عمره بعمر الأرض، يحتاج إلى كتابة بالطين والماء، بالحصى والشجر والليل، لأن الأمكنة لا تتنازل عن حكاياها ولا فرحها ولا أوجاعها، ولا حتى عن هزائمها وقلقها، في كل مكانٍ.. سيكون ما لا تعرفه أكثر بكثير مما عرفته، حتى في مكانك الذي قضيت به حياتك. لا أحد بوسعه أن يقول أنه يعرف مكاناً بالكامل، أياً كانت تلك البقعة صغيرة، ولو صغيرة بحجم القبضة، لكننا نحن البشر لا نتوقف عن الكلام، نكابّر بالرغم من أننا أضعف من أن نكتب كتابةً أزليّة عن جزء من هذه الأرض. يمكننا أن نكتب عن وجودنا بها، موقفنا منها وحماستنا لها، عمّا تحسّسناه فيها، والأثر الذي خلّفته في داخلنا، لكن أن يدعي أحداً ما أنه كتب بلداً أو مدينةً أو قرية، أو حتى زقاقاً أو شبراً.. فهو يقفز على شرف هذا الكوكب الملطخ بأكاذيبنا، لنقل أننا نكتب عن تصوراتنا للأمكنة، لا الأمكنة ذاتها.. هذا أصدق مع النفس وأجدى..

19

- تُغيضيني قلة الانتباه.. - وأنت أصلاً سهواً - أضيّق من ثقل لساني.. - وأنت أصلاً سأم!

(أن ننزوي، كل في خرّسه كان أفضل من التقافز على رقاب بعضنا البعض. كان "تيريكان" يوقظ هذه الشجارات الغاضبة الطويلة، ولكن بنبرة أقل خطورة، وبفضله استطعنا راهناً أن

التواصل لأن نفك أفكارنا وأن نفحصها دون كبير شغف، تحت زوايا مختلفة نقوم بإفراغ هذه الأفكار من طبائعها العصابية).. كذا قال هنري ميلر في روايته "شيطان في الجنة"، واصفاً وجود "تيريكان" في جدل الزوجين، الذين كان يقيم معهما. وتيريكان هذا يقول للزوجين: (أنا وحدي من يفهمكما، وأستطيع أن أعب دور الحكم وأعيد تلصيق القطع ثانية).

يُحكي هنري ميلر؛ (بدا مغلوباً على أمره كليّة حتى إنني كنت على وشك تقديم الاعتذار له.. لكنني انتهيت منه الآن، وابتعدت بخطى عريضة باتجاه الغابة، وفي الظلال الصيفية الطرية كنت أجلس قرب بركة، لأقوم بما يدعوه الفرنسيون بمحاسبة الذات. حاولت أن أقلب الأدوار، وأضع نفسي في مكانه وأنظر إلى نفسي عبر عينيه. عليّ الاعتراف بأن المحاولة لم تقدني بعيداً، ولسبب مجهول لم أصل أن أتقمص دوره بالضبط).

في كنه ذواتنا.. يبدو المرء خليطاً رهيباً وعشوائياً من تأثير ما حوله فيه من بدء حياته، فالوعاء الذي تختلط فيه الصور والتصورات، الروائح والصوت، الكلام والكوابيس، الخوف والآمال، المعتقد والتقاليد، المظالم والحقوق، والحكايات والنوم.. الخ، كل هذا وأكثر هو أنت أيها الكائن المدعو إنساناً، فطبعك وطريقتك وكلمتك ليست غير تمثيلٍ طافح لهذا العالم المهول والمعقد فيك. وعلى هذا النحو تبدو شعوبٌ بأكملها!

20

- ياه! - ماذا؟ - ضحكة.. حطت على كتفك

وأنت واقف على رصيف، لغرض العبور أو الانتظار، أو قول شيء للناس.. وبمصادفة عادية يقع أن تثير بعض الأحداث، في لحظة ما من لحظات وقوفك ذاك، أثراً هائلاً؛ تمرّ سيارةٌ مسرعة وطائشة، بمستنقعٍ ليس بعيداً عنك، وأنت، كما قلت لك، تقف على رصيفه، فيصير

أنها، بعمدٍ أو دون عمد، تطش الماء بعجلاتها، فتلطخك أو ساخ المستنقع، تقريباً سترفع يدك وتطلق لسانك بالشتائم، وربما وقف سائق السيارة ليعتذر، أو على الأغلب، سيفرّ ضاحكاً. الأكيد لحظتها أنك، لو كنت أعظم الذين وقفوا بالشوارع وعلى قارعات الأرصفة، ليعبروا أو يتكلموا، فلن تتأمل حينها كيف تَغير شكل وخارطة ذلك المستنقع التافه، ولن تتساءل إن كان سيرجع لما كان عليه أم لا. لن تفكر أنه ما من لحظة واحدة يمكنها أن تَغير حقيقة أي شيء أو أحد، تغييراً جذرياً. بضربة المفاجأة، لن يخطر ببالك وأنت في تلك اللحظة العبثية المقرفة، أن الماء نفسه، في جوهره ومكوناته، سيبقى هو الماء، ما تنائر منه في كل اتجاه، وما علق بالسيارة، وما اتسخت به ثيابك.. أنت الواقف على الرصيف.

في الأماكن الملوثة بالكثير من المستنقعات الداكنة، عليك أن تتوقع دوماً وأنت تخرج للشوارع، أنك وفي أية ثانية قد تتسخ بها. لا بأس، فهذه طبيعة الشوارع، كما تعلم، يمكنك بالتأكيد أن تعود لبيتك لتستحم، وتضع ملابسك في الغسالة، أن تفتح خزانتك وترتدي غيرها. هذا يحدث على الدوام، ومهما كان مزعجاً ومقرفاً ولا مناص منه، إلا أنه يمكن التطهر منه، لكن ما يلزمك أن تحذره كل الحذر، أن لا تسقط أنت نفسك في المستنقع، أن لا يشدك إليه حتى تغرق فيه. أن لا يستهلكك التخبط في مياهه، واستنفاد قواك فيه، ظناً منك أنه يمكنك بهذه الطريقة أن تجفف المستنقعات، وتنظف الشوارع، وتقضي على الأوساخ الزلقة، بينما أنت شيئاً فشيئاً تأخذ لون تلك المياه، ثم تشعر بلذات مصارعتها وما تهبك إياه من تصفيق السكان، فتستمرى ذلك.. وأخيراً تصير أنت نفسك جزءاً من المستنقع، فلا تعود قادراً حتى أن تنتبه لفداحة رائحتك.

البقاء في البيت كل الوقت غيابٌ وبلادة، لذلك أفكر في كل مرة أخرج، أنني قد أتسخ فأجهز ملابس بديلة دوماً، وبكل حال أستعيذ بالله من أن أزل أو يُزل عليّ، وأوصي نفسي؛ أن الزمن روح الحياة، ودونما فعل هذه الروح فإن الطبيعة تستحيل.. ولا تتسوق أبداً..

"في أحسن الأحوال هذا الوصف التشخيصي لا يدل على شيء محسوس عن الأشخاص الموصومين به، وفي أسوأ الأحوال يرسم صورة خاطئة"

جيروم هيمليستين

ذو الحس العالي يعيش دوماً في مأزق النوع. عناية الاختيار تتعمق فيه حد المأساة، تجعله مسؤولاً وضائعاً في الوقت ذاته، ما بين صلابة مواقفه ورهافة شفافيته وذائقته، وكلما ازدادت الأمور تعقيداً عليه، واقترب من الاختناق بصرامته، عاد فطرياً إلى منطقة الشك في جدوى هذا كله، ليوبخ نفسه بكل صراحة، ويقول لها؛ إن حمل الحياة على هذا القدر من الحزم لهو شيء تافه وأحمق. من يعيش على هذا النحو فهو بالتأكيد شخص مهووس بشنق نفسه بالحبل الذي يسميه؛ "العمق". يا للمغالطة.. الذين نالوا أئمن ما في الحياة، بل وغيروها، هم أولئك الذي خاضوها، ليس أنت الذي تقف جانباً منها بحجة التثقف، دون أن تجيد شيئاً غير الحديث المقزز عن ملاحقة الحقائق اللعينة. انظر لحالك، ها أنت لا تعرف حتى كيف تمشي في سوق، وشراء حلوى أو قزمة ساندويش بين الناس تمثل لك قصةً وفزعاً سخيفين. أف منك!

يحدث أن يذهب صاحبنا بعيداً في العيش، وليلاً بعد أخرى يقنع نفسه أن عليه أن يتوغل أكثر، أن ينضم للآخرين من جديد.. ومع قهقهة كل مغامرة يهتف داخلياً؛ كل هذا يفوت من الحياة كي أبقى بين الكتب. يفرق في ملذاته، وأخيراً يدخل إلى مأزق الضياع نفسه، وكلما ازدادت الأمور تعقيداً عليه، واقترب من الهاوية، عاد إلى منطقة الشك في جدوى حياته، ليوبخ نفسه بكل صراحة، ويقول لها؛ إن ما تفعله ليس سوى امتهان حقيقي لمعناك، ها أنت لا تطيق رؤية كتاب، إنك الآن بهيمة حقيقية، اخجل من نفسك يا طبل، وارجع فوراً إلى أهميتك.

ذو الحسّ العالي؛ بالضرورة إنسانٌ متطرف، لا يمكنه أن لا يمشي في الأشياء لأقصاها، مهما كانت نقيضة، مهما كانت على طرفي الغرابة من السموّ والرداءة، وهذا ما يجعله خلاقاً، إنها حركة هذا البندول الرهيب في داخله، الذي يذهب في ناحية لآخرها، ثم يعود ليندفع إلى الناحية المقابلة أيضاً لآخرها. أجل.. هذه الكارثية النفسية التي يعيشها هي ما تجعله عميقاً وأخاذاً، وهي ما تمنحه الحساسية العجيبة تجاه الأشياء من حوله، وتمنحه هذا التجول الداخلي، مع تعمق تجاربه، القدرة والإرادة أن ينقذ نفسه في اللحظة المناسبة.. ألا يؤدي نفسه ولا الآخرين.

المتطرف، في الدين أو في غيره، رشوا ماء الحياة بوجهه، واكتشفوا هذا البندول الجواني فيه، وستحصلون على إنسانٍ يزيد الحياة اتساعاً وجمالاً وعبقرية.

22

في العشرين أو أصغر

اقتراحات بسيطة، أبدأ ليست نصائح..

- في هذا العصر المنفتح على مصراعيه.. ولو أنني ما زلت في العشرين أو أصغر، فإنني كلما أردت التفتيش عن الله، فإنني سأبأشر ذلك بنفسي، بالبحث والقراءة والتعلم والتساؤل والسؤال، ما كنت لأسلم عقلي أو قلبي لأحدٍ كي يأخذ بهما، ممن أراهم أو أسمعهم، ليدلوني عليه، بل كنت سأشك فوراً في كل من يطلب مني أن أطفئ سراج عقلي وأتبعه. كنت سأقول في نفسي أن الله أكبر وأوسع من كل الأسماء. كنت سأفكر دون تعصب؛ أنني إذا انحزت لأحدٍ ضد أحد، فإنني أفتح قلبي للضعيفة واتهام الآخرين، وكما قيل؛ "من زاد على الدين.. نقص". - ولو أنني ما زلت في العشرين أو أصغر، وأنا في هذا الزمن، وأردت أن أفهم ما حدث ويحدث حولي في بلادنا، فغالباً كنت سأفكر أن الأمور ربما تكون أكبر بكثير مما

أقرأه في وسائل الاتصال التي تملأ الأثير. ما حدث ويحدث أكبر من كل الأسماء التي أيضاً قد تخطر بالبال، من أي طرف كان، بكل ما يطفح به الواقع من حين لآخر بمهاترات وتصفيات حساب متبادلة هنا وهناك، لذا.. غالباً كنت سأبحث عن بعض الكتب المحايدة، التي توجز ما يكفي للفهم، مثل كتاب الدكتور عبدالعزيز الخضر (السعودية سيرة دولة ومجتمع)، وكنت سأبحث عن مؤلفه وأناقشه فيه. - ولو أنني ما زلت في العشرين أو أصغر لفرضت على نفسي فرضاً، أن أقرأ من خمسين لمائة صفحة كل يوم، سواء من الكتب الإلكترونية أو الورقية، في مختلف المعارف، دون التوجس والخوف من أي كتاب أو فكرة، بل كنت سأحاول تعويض ما فاتني تعلمه في دراستي من الفنون والعلوم الكبرى، التي حُرمتها، بسبب رداءة تعليمنا.. ولو أنني ما زلت في العشرين أو أصغر لفعلت كل ما أستطيعه كي أتعلم لغة أو لغتين أخريين، ولو بمفردي. كنت سأحرص على رؤية فيلم أسبوعياً، على الأقل، من السينما العالمية، من مختلف ما أنتجته الشعوب، وكنت سأستخدم الانترنت يومياً للبحث عن جديد لا أعرفه من قبل.. - كنت سأفعل الكثير كي أعيش، مهما كبرت، وأنا أربي أحلامي يوماً إثر يوم، ألا أتوقف عن الكدح والمعرفة والسؤال.

23

"إن كل الملاحم التمثيلية لا يسعها إلا أن تصوّر نزاعاً وجهداً وقتالاً من أجل السعادة ولكنها لا تحتل السعادة نفسها أبداً. وهي تسير بأبطالها إلى آلاف المخاطر والمصاعب للوصول إلى الهدف المنشود، وبمجرد أن يبلغ هؤلاء الأبطال أهدافهم تسارع القصة إلى إسدال الستار إذ لم يعد لها شيء بعد ذلك لتظهره سوى أن الهدف اللامع البراق الذي توقع البطل أن يجد فيه السعادة قد خيب أمله، وأنه لم يكن بعد بلوغه أسعد حالاً منه قبل بلوغه "

آرثر شوبنهاور

كلما ولدت قصة سيجلس على قارعة من طرقاتها شيخٌ أحذب، اسمه "ما لا يقال". في كل قصة سيسحب هذا الـ "ما لا يقال" جذعاً، ويستند إليه، ثم يشرع في المهمة بلا توقف، بينما الناس في كل قصة يمرّون من حواليه، وينظرون إليه بتعجبٍ وشفقة، وربما توشوش اثنان ما بينهما؛ "يا لهذا الكهل المخبول"، أما أقل القليلين في سائر القصص، فهم أولئك الذين ينصتون إليه، ويفكرون في الجحيم التي تلوّت فيها عظامه حتى انتهى به المطاف إلى هذا الجذع. كيف صار هذا الكهل شبحاً شاحباً من قصة إلى قصة!.

همهم "ما لا يُقال" مرةً، وفي قصة معتادة، وهو جالس على هيئة ملامة فقال؛ إنني مزعوجٌ من تفاقم المحتالين لهذا الحد. إنهم مهما عرفوا كيف تتشكل المصائر، فإنهم لا يشيرون لأحدٍ ناحية الأمام، بل يترامون التائهيين فيما بينهم ليشغلوهم عن الحقيقة، وليغرقوهم في وديانٍ مشجرةٍ بالوهم الذي يلبس العباءات التي تعبق بالبخور ودهن العود. وفي قصة من ذاك النوع المقهور بالتحولات، قال "ما لا يقال" بأسفٍ بالغ؛ إن من يحاولون الصدق يتوارون خلف صمتهم، فلا يُقسمون لمن يلوذ بهم إنه لا يبدأ التعلّم، ولا تكشف المعرفة عن سرّتها إلا حين نكف عن أنانيتنا السفيهة.

هذا الخيط الممتد في أعمارنا تمشي فيه أفعالنا وفعائلنا، ويصير لها العمر والطبائع، ومن وقتٍ إلى وقت تتحين أفعالنا الفرص لتخرج إلى سطح حياتنا بصورةٍ أخرى، لتقول لنا إنها في خيط عمرنا لم تذهب، فالأيام كلها بما فيها، قد تختفي، لكنها لا تذهب.

"ما لا يقال" .. هذا الكامن في قصصنا وأعمارنا، هذا العجوز.

- انتبهت كيف غامت السحابة وتجهّم البرد! - أخطأت القطة؟ - ربما لم تدر الربطة عن الحبال البعيدة.

لا ينتبه الغمام الشتوي إلى ظله ولا للبرد، لا يعرف شيئاً عن وزنه، ولا يهّمه أي طريق في الجوّ سيعبر، ولا أي رياح ستدفعه. يقف بموازية تلّ أو بناية أو جبل على هيئة لحافٍ كبيرٍ وقاتم، مليءٍ بوجوه أليفةٍ غادرت منذ أمد، ولم تأخذ معها طلّاتها من الأبواب، ولا ضحكاتِها وخطاها وسط البيت. حسناً.. الشتاء كما الألففة، له رائحة وخيالات ورجفة. إذاً لا تحدّق في غيمة، قد يتطاير إلى شفّتيك رذاذ قِصّة، قد يسيل على جبهتك خيالٌ ضائع في السماوات، وقد يلبسك.

لن يكون بوسع العالم أن يتجاوز وحدته، الظلمة الكونية التي خلق منها ويهيم فيها، برودته وملاطته القارسة والأبدية، وإذا تعالت بهجة ذات يوم في ناحية من الكوكب، خلف شبّاكٍ أو في زقاقٍ أو صدفة، فلا بدّ أن ترجع الأشياء الشتوية يوماً، مصحوبةً بأرواحٍ شديدة الإعياء من الحنين. كل شتاء يعود.. يعود وفي ذراعيه قرصات من الفناء، وندبات من العدم. إذاً لا تجلس قبالة مدفأة ولا ميناء، حاذر الصعود إلى الأسقف وعدّ البروق، مدّ رجلك إلى شارعٍ وامش.. امش فقط.

خبر في الصحف السعودية؛ 28 يناير 2013 (أدت الأمطار الغزيرة التي تهطل على منطقة تبوك منذ أمس الأحد لوفاة طفلٍ رضيع، لا يتجاوز العام من عمره؛ حيث سقط الطفل من بين يدي والدته التي كانت تحتضنه بين يديها أثناء عبور والده بمركبته وادي روافة الذي كان يجري السيل فيه... وعثرت فرق البحث والإنقاذ للدفاع المدني على الطفل على بعد كيلومترين من موقع سقوطه).

لم تسمع أمّاً في ملجأ وهي تتلوى رعباً على صغارها أن ينهشهم الصقيع، لم ترَ يداً ممدودةً في السيل، تتشبث بالهواء وتختفي بأسى عارم، لم تلتصق ظهرك بحائطٍ في العراء، لم تتكرمش في "صندوق" ولا "عشة"، لم تبرك قبل طلوع الشمس عند باب مطعم في انتظار الشفقة، لم تططق أمراض العظام المسنة في عظامك، لم يخنق ربو الأطفال صدرك، لم.. لم.. إذاً فاخفض صوتك، بلّل جنببك اليابس، وزد هذه الأرض خجلاً، قم..

أي شيء يمكنه أن يرفع بعض الحزن، وأنت ترى أناساً يتقدمون في العمر، ويقتربون من مغادراتهم، وكنت قد نشأت على فيض قلوبهم وسماحة أرواحهم، وقد علموا من حولهم وكل من اقترب منهم طريقةً بسيطةً وعميقةً لخوض الحياة في آن؛ العيش بلا ضغائن. هذا الجيل الذي يذهب أبناؤه واحداً تلو الآخر، يملكون من جوهر المحبة وصدقيتها هذا القدر الهائل من السخاء والحنو، يعبرون عنه بطريقتهم، دون تنميقات ولا كلام زائد ولا افتعال. يمكنهم أن يلمسوا داخلك بلمحة عينٍ مُتعبة، بقبضة يدٍ على يد، بمصافحةٍ وسؤالٍ عن الحال والبيت، حتى وهم في أقصى أوجاعهم.

يُظَلَّلُ شَيْئاً ثَمَّ يَمْحُوهُ

1

إذا مات شاعرٌ في مكان ما من هذا الوجود، ماتت في مكانٍ آخر شجرة، وتساقطت أوراقها قبيل الفجر. إذا مات شاعرٌ انطفأت نجمة، وتخاصم حبيبان، وضاع خاتم، وأصبحت الدنيا أقل..

إذا مات شاعرٌ أوصدت نافذة، وبكت خلفها الفتاة والسقف والوسادة، وإذا مات شاعرٌ تنسى القهوة المواعيد، ويعتذر الطل من الزهرة، ولا يلتفت الصبح إلى وجه الحمامة، والحمامة لا تقف على طرف السور، ويمر الغروب متثاقلاً ومقطباً حاجبيه.. وإذا مات شاعرٌ غص بنغماته الناي، ويرجع الشتاء أشد كآبة.

في القرى.. لا ينام الشاعر في الليل، يبقى كالظمأ يحرس البئر والحزاني، ويقسم للجافلين أن لن يفزعهم، وأن لن يحول ما بينهم وبين الدلو..

وفي القرى أول ما يتمتم طفلاً بالأغنيات والشعر تأتي الغيمة، وتتمايل السنبل، وترى النساء تلك الليلة أحلاماً غريبة، ويستيقظن وفي أكفهن الحناء. أول ما يولد الشاعر.. تصيح الباخرة، وتتسع الأرض أكثر. وأول ما يولد شاعرٌ.. تسهر البساتين ويفرح الكهول، أما الظالمون فيحدقون في وجوه بعضهم، ولا يجدون في أفواههم السنة.

وفي القرى إذا مات شاعرٌ.. نامت الصغيرات خائفات، وصرخ الجفاء، وتقافز الجذب، والكراهية، واشتكت الموسيقى الوحشة، وقالت الهموم في وجه الخلائق "أنتم الآن وحدكم..".

ودائماً يموت الشعراء، ويذهبون واحداً واحداً دون أن يخبرونا ما هو الشعر، دون أن يخرجوا من صدورهم الورقة الأخيرة التي تركوا فيها السرّ، وكيف كانوا يقولون الكلام.. وما هو ذلك الإشعاع الحارّ الذي يلوّن الكلمات، ويضيئها كما تفعل الكهرباء.. يذهبون واحداً واحداً إلى هناك، حيث الموت نصّهم الكبير، النص الذي يواجهوننا به، يرمونه على ملامحنا ثم يخرجون بهدوءٍ وحزنٍ، قبيل الفجر دوماً، كما يجدف الغريب الواقف على حافة القارب بصمتٍ وجلالٍ، ويمضي بعيداً، شيئاً فشيئاً باتجاه الضباب.. يدير لنا ظهره ويسافر إلى قلب المحيط.

- هل مات اليوم شاعر؟

- حسناً.. إذا صليت عليه، وقبضتم على أصابع يده لآخر مرة، فلا تغادروه حتى تقرأوا ولو سطرين من قصائده، لا تتركوه وحيداً.

2

- يا إلهي! إن الدنيا صارت كومة خربة! - ما الذي بقي في حوزتنا من نبض؟ أنصت وعدّ.. - ما الذي بقي في كفّ العالم ليعطينا إياه! - انظر لزنديك المقشعرين..

لو أن دنيا الجميع ستأكل وقليلاً وتوشك أن تنقضي، لو أنه تهدم بهذا الكوكب كل شيء، ولم يبق منه غير مقعدين خشبيين، في مكانٍ هشٍّ ومهمل، في أرضٍ كانت مأهولةً بالمطر والضباب والشجر والناس، ولو أن المخلوقات جميعها ماتت، ولم يبق غير اثنين من بني البشر.. لو أنهما كانا يركضان بفرعٍ وصراخٍ، وبينهما هما في أقصى بحثهما عن ما بقي من الدنيا والحياة والأهل والأشياء، وبينهما هما محاطان بكل هذا الخراب.. لو أنهما التقيا صدفةً بجوار هذين المقعدين، فتعانقا وتباكيا، ثم استلقيا مهدودين، ومتهالكين.. متقابلين وجهاً لوجه، لو أنهما سيعزيان بعضهما في وفاة الموجودات، ونهاية العالم، وفي أوج

حيرتهما أمام ذاك الكابوس، ربما يسكتان للحظة، وستلوح في رأس كل واحدٍ منهما كلمات، وأغلب الظن أنها ستكون كلمات أمه، توشوش له بشعرٍ قرويٍ بسيط، وتنشده أغنيةً من أغنياتها الحانية، وسيحلمان من جديد بالأرض والليل والمخابىء.. ووجوهٌ قليلةٌ جداً ستطوف في جبهتيهما، وسيرددان ما يتذكرانه لاصقاً في ذهنيهما من حنينٍ حارق.. وحينها، حينها فقط سيعرفان أنه لا شيء بوسعه أن يصمد، لا شيء سوى الحب والصوت والشعر والكلمات.

4

"إن ما تفعلونه بمفردكم.. هو ما يصنعكم"

جون خوري

الرجل الأعرج.. كثير الوقوف. يملأ صدره بالهواء، ويمد عنقه عالياً، ويتعالى على نفسه وعلى الناس. إنه يشعر بكماله حين ينتصب على قدميه، ويكره كل الدروب والطرقات.. لكنه لحظة يخلو بنفسه ينظر إلى رجليه ويمقتهما، وينتقص جميع الماشين.. وامرأة.. هشة ومهزوزة، لكنها حين تغطي وجهها، تستطيع أن تقول كل شيء.. حتى إنها قادرة على أن تنتزع ما تريده. هذه المرأة لربما كانت قبيحةً، أو طالها حريقٌ قديم، فتساقطت خصلاتها، وتكرمش خذاها، وبقيت لها عينان جميلتان، لا أكثر من ذلك. ورجلٌ بشاربٍ ضخم، وعضلاتٍ صلبة، وقميصٍ متعزقٍ ولاصقٍ بصدره، لا يكف أبداً عن النظر لشطبٍ بارزٍ في جبهته. وكل يوم يؤدي تمرينات جسده بحمايس أكبر، ويزداد ضخامةً.. وقبل أن ينام، وفور استيقاظه ينظر للمرأة، ويرى الشطب من جديد، كل يوم ينظر للمرأة ويرى جبهته المشطوبة من جديد.

هذه انعكاسات لذكريات الأجساد وحكايات خزيها.. فماذا عن شطوب النفس وحكاياتها، وماذا عن حريقها، وعرجها وخجلها.. أليس في حياتنا شخص يكذب، ربما لأنه لم يشعر بقيمته ولو لمرة واحدة، وشخص يبتذل نفسه بمديح الأقوياء وتبجيلهم، ربما لأنه لم يجد موضعاً في زحام الموائد، وآخر يبالغ في أناقة هندامه، ويحرك يديه ورجليه بطريقة آلية، ربما لأن سخريّة جارحةً تلاحقه من سنين طويلة، وشخص لا يتحدث عن غير الأخلاق والفضائل، ربما لأنه في خفاياه يتمنى ويحلم أحلاماً شاذةً وقذرة، وآخر يضيّق على موظفيه، ويؤذيه في أرزاقهم، ربما لأن له بيتاً فاسداً.. أليس في حياتنا امرأة قلبها محشورٌ بالعشاق والعابرين، ربما لأنه لم يتولّ العناية بها ولو رجل واحد، أليس في حياتنا امرأة تسيء إلى ابنتها التي تتقن لغتين، ربما لأن هذه الأم، وقبل أن تخلق ابنتها تلك، أخطأت في قول عبارة بسيطة بلغة غير لغتها، فتضاحك الناس من حولها، وما زال بجوفها شعورٌ كامنٌ بالخيبة.

العرج والوقوف والمشي، وغطاء الوجه، والهشاشة، والحريق، والثقة، والكذب، وامتهان الذات، والأناقة المفرطة، وهوس المواعظ، والاستبداد، والخيانة، وحب التملك، والجريمة، والظلم، والكراهية، والطغيان، والعريضة، كل هذا وسواه مجرد احتمالاتٍ لوجوهٍ أخرى للعوز النفسي.

5

"كنهرٍ هادرٍ أبداً.. تمايلت السيوف معاً،

معاً مالت، معاً عصفت،

تبخترت الكعوب.. معاً رُفعت، معاً وُضعت."

(فواز عيّد)

لا يكون شيء خارق الجمال إلا وهو فطريّ وعفوي بالضرورة. القصديات والنوايا تفسد تلقائية الفنّ والحياة الأولى، وتسيء للون والصوت وللكتابة، وتخدش روح الكلمات.

يقول كل عظيم عن ما أبدعه وعن سنينه وحياته كلها أنه لم يتعمدها، وأنه لا يعرف كيف سارت الأمور على هذا النحو.. لكنها سارت، وهو أسلم جبهته للرياح، فقادته إلى غابته الشخصية التي انتهى إليها.

الشاعر لا يتعمّد نصّه، وإنما يسيح من خلاياه، ومن بين أصابعه وجسمه كالعرق، والرسام لا ينوي لوحته، وإنما تقطر الأصباغ والخطوط والخيالات من تحت أظافره وأهدابه، والراقص.. الراقص يرمي جسده على الإيقاع مثل شيء عالق بالموج، يعلوان معاً، ويهبطان معاً، والمغني تنبجس الأغنية من جوفه، يسمعها أولاً في داخله، ثم تتسلق تلك الأغنية حنجرتة وصوته.

وربما كان الذي يختلج في نفوس هؤلاء المحمومين أنهم يتركون شيئاً في داخلهم يندلق، لا يمنعون، ولا يدفعونه، ولا يفتعلونه، وهذا الذي يصل إلينا من سخونة أرواحهم ليس سوى ما طفح من هذا الاندلاق، وكل هذه الفنون الكبرى والعظيمة على طول الزمن وعرضه، والتي تركت بصماتها على الإنسانية، ما هي إلا بعض من فيض تلك الجحيم اللذيذة والفاتنة في جوف تلك النفوس، وكلهم أولئك المحمومون يفاجأون فيما بعد، وفي كل مرة بأثرهم على الناس، ويودون لو اعترفوا أنهم لم يريدوا، ولم يقصدوا أيّاً من هذا.

6

- ولماذا نوفمبر بالذات؟

- لأنه شهر الأسماء..

- قفزة البرد؟

- رعشة الموقد واللحاف.

نوفمبر.. هذا الفصل الذي تروض ليلاليه البشر ليأتي الشتاء العظيم، وهم في جاهزيتهم الكاملة ليستقبلوا تلك الأحزان النبيلة، فاتحين كل أوردتهم لأقصى اتساعها للحب والحنين والحكايا.. معجونين ببرد هذا الشتاء وأمطاره ولياليه الطويلة.

وفي نوفمبر هذا، في الحادي والعشرين منه بالذات، ولدت طفلة صغيرة بطول الذراع كسائر المواليد. لكنها حتماً كانت تشبه هذا الشهر كثيراً، فقد كانت عيناها جميلتين، ووجهها لا بد أنه كان كقطرة ندى، وأن علاقتها بالصباح لم تكن مجرد سرّ، بل كانت منذ البدء جسداً صغيراً وروحاً كبيرة، ولا بد أن كل شيء في نوفمبر كان يحيطها بتنهديات رقيقة، وهكذا لا بد أنه قد اتفق الوالدان، وديع وليزا، أن يسميها نهاد.. وأصبح لها مثل كل الصغار اسم كامل: نهاد وديع حداد، نهاد التي أصبحت فيما بعد السيدة فيروز، التي لا تكاد نافذة لم ينقر صوتها عليها كعصفور ملون.. وأصبحت فيروز التي تشبه الشهر الذي يسبق البرد والمطر، الحكايا والسهر.

7

- أصوات الذاهبين.. - ما بها؟ - لا يبقى منها غير وخز في الذاكرة، - وأعينهم ما عاد بوسعها التحديق ولا الحنو، لم يبق منها غير لمحة خائفة. - هل رمى أحد على وجهك لمحته قبل أن يغادر؟ - كل الذين رأيتهم لآخر مرة - رموها بتعلّقٍ وعتب! - كانوا خائفين وهم في طريقهم إلى النسيان والوحدة

يا الله، مثلما يترك الرضّ أو الكدمة لونهما على الجسد، يترك الفقد والغياب لونهما القاتم على الروح.. والأيام تمضي وتمضي، دون أن تبقي لنا من الذكريات إلا ما نتشبت به كالغرقى.

هذا الدهر الصعب بنهاية كل عام يلف عباءته السوداء على ساعده، وينظر ملياً في السماء، ثم ينهض، ويتأكد أنه قد أخذ منّا ما يريد، فيتحسس جيوبه المعبأة بالموتى، ويشيح بوجهه الرمادي، دالفاً مع الباب، بظهر عريض ومشية متثاقلة، ليغادر إلى غير رجعة..

هذا الدهر القاسي كل عام، يخرج منديلاً أبيض، ويبسطه على ركبته، ويأخذ ينصت لكلمة "أمي" .. وكما سمع ظمأها وحدتها في مكان أعلى من الآخر في هذا العالم.. مديده، وسحب تلك الـ "أمي"، وراح يجمع الأمهات من هنا وهناك، ويكومهن في منديله، واحدة فوق الأخرى، حتى يمتلى.

آباء، وأصدقاء، ونساء، ومسنون.. وأولاد صغار، وبنات كعشب الجنة، وشباب كانت تلمع الصباحات على أصداعهم، ورجال أشداء.. خرهم هذا الدهر من صدورهم، ومزّ خيطه الداكن من خلالها، وصنع منهم عقداً طويلاً ووضعها على عنقه، ويوماً عن يوم كان يملأ هذا العقد بالأمهات، أكثر.. فأكثر.

8

- شغف مختبئ في الطين، - وبين كل درفتي شباك.. - لو أن أحداً حدّث نفسه أن يفرك باباً بيديه - لتضوّع بالأرواح، - بكلمات من عبوره.

شاعرٌ يؤلمه قلبه بالفطرة.. وبالضرورة لابد أن يكون هذا الشاعر مكرّب الرجاءات والأمانى والأيام، وعلى الدوام سيكون في يده سهمٌ باسمٍ محاطٍ بالعناد والمجهول، وحياته ما بين مفرق رأسه حتى أثر قدميه.. حيث يجعل للأوجاع دخاناً وسهراً وقليلاً من البكاء والوسائد، وكثيراً من العناد.

وتقول النخلة لأختها هات الوقت وادهني العابرين بالظل، وكلما استلقى تحتك شاعرٌ مُجهّدٌ فهزّي بروحك عليه.

الشعراء وكلماتهم حين تسقط.. ترنّ كما لو أن أغنيةً كبيرةً ستنبجس من أعلى جبل ، وكأنها ستسيل لتغسل ملامح جفدها الأمد.

9

- ماذا سنفعل في الصباح؟ - حين نكون في العزلة؟ - على التلّ نفسه.. - سننتظر الليل كي نسهره، - نوصد الباب ونلتصق كهزّ بالزاوية

جاء حين جاء ذات يومٍ قديمٍ، ووجهه لحنٌ وأصابعه ريشةً، وصدق إحساسه كان ميناءً قاصياً من موانئ مدينة حزينّة، وعوده الذي يعزفه ويعزف عليه كان كما لو أنه ركنٌ منزوٍ لانتظار الراجعين ووداع الراحلين، وصوته كان أشبه ما يكون بموعِدٍ هاديٍّ وشموعٍ ملوّنة، وعيناه كانتا كلّ السهر.

اختار أن يمضي إلى سرّه الجميل.. أن يذهب إلى كوخ أغنياته ومزاجه في صمت، وأن يبقى هناك في زاويته بعيداً عن جشع الوقت، وبعيداً عن الزحام والضوء، بعيداً بعيداً.. وكأنما كان قدر الصوت أن يُخلق وحده، وأن لا تسمعه غير حلقات الليل، وأن لا يكون له من نديم غير نفسه.. فغنى، وظنّ أن لا أحد سيسمعه، وتوقع كثيراً أن لا أحد سيتذكره حين تتصايح كل هذه الحناجر بالكلام الرث. كان يحب وحدته ومصيره.

غنى الشاعر بشفقةٍ وعذابٍ فسيحين، لأنه ربّما تخيل أن العالم بات مزيفاً للحد الذي يبدو وكأنه سقف يكاد أن ينهدّ على رؤوس أهله، وتخيّل دوماً أن حبّاً سيتهشم.

غنى الشاعر بدمٍ حارٍ وخائف، لأنه أيضاً ربما أفزعه جداً أن يصير المجهولون دونما قصيدة، أولئك الذين لا يعرفهم أحد، ولا يريدون أن يعرفهم أحد، وأقصى ما يطمحون له أن يجدوا في هذه الليالي الكثيرة ليلةً واحدةً من حينٍ إلى حين، يصبّون نفوسهم على نواحيها حتى

لا يطلع عليهم الصبح وقد تركوا في قلوبهم غير بياض يكفي لغسيل الأرض من أقصاها إلى أقصاها.

10

يقولون أنه يسمع صوت الماء تحت الأرض. يسمونه "حيان المسمع"، وكلما أراد أحد أن يحفر بئراً في مزرعته هرع إلى "حيان"، يسأله عن صوت الماء. ولم يكن أحد من أهل القرية ليستنكر هذه القدرة الرهيبة لديه، لأنه منذ كان طفلاً وهو يوقظ أمه في الليل فزعاً من الأصوات التي لا يسمعهما أحد سواه، وعندما كبر قليلاً صار يمشي بين الحقول، وفجأة يرفع قدميه، وعندما يسألونه "ما بك؟" يجيبهم أنه سمع صوت الماء تحتها، ثم جربوا مرة أن يحفروا الأرض تحت كلمته وقدميه، فما كادوا يضعون أيديهم في الطين حتى انبجس الماء، كأنه كان ينتظر أذن "حيان" منذ بدء الخليقة، ومن ذلك الحين وهو سيد الصوت والماء في قريته، وهكذا عاش كل حياته.

لكن "حيان" صار كبيراً جداً، صار كبيراً للحد الذي فقد فيه سمعه، صار "حيان" يتيماً من الأصوات، حتى إنه عندما يرى نبعاً، أو يضعون أمامه قذح ماء.. فإنه يحدق فيه قليلاً وسرعان ما تقطر عيناه عليه. لقد صار "حيان" وحيداً جداً، لا يسمع صوت الماء.

في قرية "حيان" أحب الأطفال الصوت، وحفظوا نغمات الطيور، ونددات المطر، وعندما يتألم أحدهم من شيء من دنياه فإن أول ما يهرب إليه أن يطلق أذنه للطبيعة، وبعد أن يمتلئ بها.. يبدأ بقذف صوته هو في حزن الرياح والليل. لقد تعلم الصغار في قرية "حيان" نوعاً من الموسيقى لا يفهمها سواهم. وكانت الأصوات طريقتهم في الوجود.

وفي أقصى الأرض، في اليابان لم يكن هناك "حيان" وإنما "مسمع" آخر يشبهه، يلقبونه بـ"كيتارو"؛ الموسيقي الياباني الذي يملك هبة السحرة وكأنه أحد ملوك الجن، و"كيتارو" هذا قال مرة.. "أعرف أن الموسيقى تستطيع أن تغير أي شخص آخر، لأنها غيرتني."

كلاهما.. "كيتارو" و"حيان"، أدركا بفطرتيهما روح الصوت والموسيقى التي تأتي من قلب الماء، تحت الأرض، ساعة الفجر، الساعة التي تصلح دائماً للمعرضين عن جدل البشر، المستغنين بالإيقاع الذي يغمر نفوسهم عن ما سواه. روح الموسيقى التي لا تجد النفوس العالقة بها ذواتها إلا في الانصهار بملكوت الكون، وبها عاشوا حياتهم الرقيقة والمزحمة بالإيقاعات. لقد فهموا أن روح الموسيقى تختبئ في كهوف الجبال والغابات، وتسيل في الوديان والشجر والبساتين وتمدد على كثبان الرمل، وترعش في الموج والصواري. فصارت آذانهم ونفوسهم مثل الموانئ والكراسي التي تواجه البحيرات والضباب. مأهولة بالأرواح التي تغني وتلوذ بأحناكها، وعبأوا بها ذاكرتهم، التي وجدت قيمة الحياة في أن تقبض في لحظة شاردة منها على الغيب والإشراق، على أشياء لا تقبل التذكر..

كيتارو قال: "أبدأ لم أتلق أي تعليم في الموسيقى، فقط تعلمت أن أثق بأذني ومشاعري".

و"حيان" قال أيضاً: "ربي خلق قلبي في مسمعي"

11

"ينتمي إلى أسئلة الأطفال سؤال؛ ما إذا كانت عذابات الجحيم متناهية أم مؤبدة"

إيمانويل كانط

أن يكون خلف حديثك قلب من عالم الأطفال، أن تملك صفاء لغتهم وتعبيرهم المدهش، حيال الوجود والواقع. أن تملك بياضهم ونواياهم، وأن تذهب بك المعرفة والوعي حتى تدرك أسئلتهم المذهلة.. فهذا يعني أنك شخص شديد الفن وال ، أنك توشك أن تسمع صوت الحصى والعشب والأزمنة، لأن أقصى ما يمكن أن تأخذنا إليه المعرفة والفلسفة والفنون هي أن تعيدنا أطفالاً.

طفلة في الرابعة من عمرها سألت يوماً: "بابا، ليه الليل يجي كل يوم؟"، وطفلة أخرى تقول لأُمها وهي في فراشها، وقبل أن تخلد للنوم: "لما نطقي الكهربا، وين يروح النور؟".

تقول سيدة أنها وبنت أختها كانتا مرة في الفناء تنظران إلى النجوم، وبعد حين، التفتت الطفلة لخالتها ثم أشارت إلى السماء وسألت "يا خالة.. كيف هو صوت النجمة؟"

طفلة أخرى تقول "أنا أعرف اسم السرير. اسمه مركبة الأحلام. نركب فيها واحنا نايمين"

طفل ظل يفكر بشرود وحين سأله والده عما به.. أجابه الصغير فوراً بسؤال "بابا كيف شكل الله؟" وردّ الوالد "ما أعرف، لكن تعرف أنت شكل الله؟" فأجاب الصغير "ايوه لونه أبيض.."

مرّة.. رأيت طفلاً، عمره ثلاثة عشر عاماً على مسرح، كان ينبجس من بين أضلاعه صوت كماء الغيب، يحوم كطائرٍ والبخور يسبح خلفه بأرجاء المسرح، ولم يكذب يوماً حتى تهدلت أصداع الناس، وبكت الأمهات من كل ناحية.

كان الطفل يستمر في الغناء دون أن ينتبه لما يحدث، ولا لشيء مما يفعله، كان يغني وينظر إلى شيء لا يراه أحدٌ إلا هو. كان يركز عينيه فيه ويغني، وقبل أن ينتهي، وقف الجميع. لقد شعروا أن نداءً كبيراً ومهيّباً، أكبر من هذا الطفل، وأبعد من صوته وأغنيته.

12

- اللون، إنه اللون.. - أو العلامة الروحية التي تلمع في العينين. - ذلك القوس اللانهائي - المقادير كاملةً تبرق في الحدقات - يعيش، ويحب، ويألم، ويخسر، ويحلم، ويتعذب، ويشتم، ويغني، ويكذب، ويخون، ويضحى، ويخلص، ويرغب، ويستحي، وينتقم، ويجبن، ويقبل، ويدبر، ويموت ويحيا..

لا شيء يمكنه أن يقتل الفن العبقرى سوى عبقريته ذاتها، جوهر الفن العبقرى يمزق جسد صاحبه حتى النهاية، ليأخذ تلك الروح من ضيق الجسد إلى حرية العدم.

إن حقيقة حياة أي إنسان، هي بالضبط حقيقة موته، وحين يضع أحد إصبعه على حقيقة حياتك، فإنه يكون قد وضعها فوراً على حقيقة موتك.

13

- كم عدد الذين تختبئ بقاياهم في يدك؟

- إنهم كل الذين صافحتهم. وما عدد الأشياء التي لا تنساها؟ إنها كل الأشياء التي جمعت عليها يدي يوماً، وما عدت أراها ولا يراها الناس، لكن سخونتها وبصمتها صارت روح الكف.

- ومن تكون؟

- أنا: ذاكرتي.

راحة اليد..

الجزء الغريب في جسد الإنسان. راحة اليد تلك المساحة الصغيرة التي يبدأ منها الحب والرائحة والمواثيق، وفيها تنمو لغة كل حروفها من الطبيعة، وكلماتها من ال . راحة اليد.. قلب آخر.

وراحة اليد.. حتى في خلقتها تبدو وكأنها مُصممة لتكون المكان الذي يلتقي فيه القلب والذاكرة واللغة.

مشكلة الباحثين عن حقيقة الأشياء أنهم كلما تخلصوا من نعيم أوهامها فقدوها، وكلما حاربوا أكاذيب البشر أكثر فأكثر، كلما وجدوا أنفسهم معزولين عن الحياة والعالم أكثر. مشكلة الحب الأزلية أن الكلمات الجميلة والقاسية.. كلها تؤذيه.

مشكلة الكائنات الليلة أنها تعمر طويلاً، رغماً عن أنف الطب، لأن الليل أكثر انسجاماً مع الكون.. ومشكلة الذين يحبون النهار أن الشمس ستطلع يوماً ما ولن يكون باستطاعتهم رؤيتها.

مشكلة الأحلام الكبيرة أنها لا تتوقع في داخلها شيئاً عن الأيام عندما تفقد صوابها.

مشكلة الفنانين العظماء أنهم غير قادرين على الحياد، والفنون التي خرجت من تحت أرواحهم شديدة الانحياز مثلهم.. والفن عالم لا نهائي من التطرف الحميم.

مشكلة الثقة الواسعة، بين كل اثنين، أنها في نفس الوقت تجعل فرصة الإحساس بالخيبة أوسع، وكل حكاية لخيانة كبيرة لا بد أنها جاءت ابتداءً من ثقة كبيرة.

- إلام انحدرت سلالات الآيائل؟ - لغواية الكلام.. - هكذا توالدنا إننا! - وملأنا قدها حتى آخره.. - وسقيناه خميلة..

شاعرٌ يطيل النظر في الأشياء، ويحب أمه. يفهم الوديان كما تفهم الرياحين مداخل البيوت، ويفكر دوماً في الانسحاب، ثم يتذكر أن شيئاً ما لم يقله بعد، فيتراجع ويغير جلسته فقط.

وهو واقف على شكل شجرة قروية، قال أن الأمكنة عند الفجر تظهر وهي أكثر الأشياء قدرةً على لسع الحياة النائمة في الإنسان، كي يستيقظ، فالطبيعة التي خلقها الله، قد صممها بحيث لا يمكنها الحياد، فإما أن تكون جزءاً منها، أيها الكائن البشري المحدود، ومن طباعها ونواميسها وحركتها، وإما أن ترفضك لتصبح مثل أي جسم مجرّم وضار، تنبذك حتى التربة التي تمشي فوقها.

ثم قلت له مرةً، وهو على شكل غدير، بأن الطبيعة المحيطة بنا، بكل تفاصيلها، تقف على أطراف أصابعها كل مطلع فجر، ومتمى ما وجدت روحاً تبادلها البصر والأسئلة، فإنها تغادر جغرافيتها وتنساب عبر حواس الإنسان إلى جوفه، لتأخذ الجبال المصفوفة بجوار بعضها على مد البصر، شكلاً موازياً من جبالٍ أخرى في النفس، وكذلك تفعل الغيمة؛ تكور غيمةً مثلها في النفس، والصحراء والبحر والغابة، وكل شيء في الطبيعة، كل شيء.. من لون السماء الضخم جداً، والمزاجي جداً، وحتى القشة التي تنفخها حتى أنفاس العاصف، كلها تحفر شكلها الأزلي الآخر في النفس.

وبعينيّه المحشودتين بأهازيج الفجر الشجاعة، وحنجرته المشرعة، وصوته الذي يشبه وقع المطر على رؤوس العشب، كما يشبه تطاير الحصى تحت القوافل، يحدق في القطن، متكئاً في أرجوحة معقودة من طرفيها في ناحيتي السماء، وكلما أحس باللغة تعصيه اهتزّ كليث جائع، وتساعد الغناء إلى جبهته.. وراح يحرك رأسه يمناً وشمالاً، ومدد أهدابه بكل ما في الشعر من كبرياء وريح.. الشاعر.

لا يملك الشاعر في الأرض، إلا ما يملكه الطير من السماء، وما الذي يملكه الطير من السماء غير جناحيه.

إذا أصيب طائر في جناحيه فإن أول ما تنساه الرياح والأغصان والشبابيك، ولن يحيط به غير قطط الشوارع والغربان، وإذا أصيب صاحب الفن في حرّيته وصدقه فإن أول ما ينصرف عنه الليل والأسئلة والأغنيات، ولن يهتم له شيء غير الباعة والكذابين.

الشاعر مثلاً.. يبني من لغته والأساطير التي تعوم في رأسه عوالم لا تنتهي. نعم يتخيل الشاعر، لكنه لا يكذب، ولا يساوم على حرته.

يبدأ الشاعر بالخيال والحلم، ثم يتعب كثيراً، وقبل أن يوشك على اليأس من الكلمات، وفي اللحظة التي يحدث نفسه فيها بالإقلاع عن اللغة، في تلك اللحظة من الصدق تحديداً.. يبصر الرؤيا، وينفتح قدامه أفق من الغيب والذات، لا يعرفه سواه، وحينها تتمدد روحه إلى أقصاها، وتنكمش نفسه إلى أقصاها.. تتمدد روحه في تفاصيل هذا الكون، ذرة ذرة، وضيقة ضيقة، وسماوات سماوات، وفي الوقت نفسه تنكمش نفسه إلى ربيبتها وعزلتها ووحدتها، ثم يقضي حياته دون أن يثق بشيء غير كلماته وغير الطبيعة، ولا شيء يؤلمه أكثر من كلماته التي قالها، والطبيعة التي رجع إلى سباحته اللانهائية فيها.

لا تزعجوا شاعراً، وإن كان ولا بد، فلتكن أضواؤكم بالقدر الذي يكفي من الحذر، كي لا تريبكوا روحه.

16

قال صوت مجهول: ما الكتابة؟ قالت أرض الناس: الكتابة أئز صغير.. لا يساوي شيئاً من الكثير الذي محونا، لكننا نكتب. قال الصوت: إذن بمن تثق الكلمات؟ قالت الأرض: بمن لا يمحوها.

لا أحد يعرف من أين جاء الصوت المجهول، من وراء أم من الأمام. ربما جاء من قرية أو بادية أو ميناء، أو ربما خرج كالصدفة من مندبل بمجرى السيل.. وكانت أرض الناس هي نفسها أرض الناس، إلا أنها كانت محمومة وقلقة، وتظهر وقد تمددت قليلاً.

كان الوقت ساعة الشروق، ومع كل سؤال كانت أرض الناس تتفتح في نواحيها ذكريات شجاعة على مد العين.. وعندما توسطت الشمس سماء البشر، سكتت أرض الناس حتى

مرّت الظهيرة، ثم سألت تلك الأرض من أعرق بئرٍ للماء فيها: أيها الصوت المجهول.. كيف تعرف الرجال؟ فأجابها الصوت: أعرفهم بما يخفونه وما يخافون منه.

حسناً، هل يتكلم الرجال كثيراً؟ هكذا سألت أرض الناس. أجبها الصوت المجهول بثقة: ألسنة الرجال في أيديهم وأقدامهم، ألسنة الرجال في أجسادهم أكثر منها في أفواههم. الرجال لا يكذبون.

ذهب الصوت المجهول ورجع، ثم ذهب ورجع.. ومرةً واحدةً فقط سألت: خبريني أيتها الأرض الطيبة، يا أرض الناس.. ما الذي يملأ نفساً بالدين والشعر والغناء؟ ويملاً نفساً أخرى بذات الدين، لكن بالكراهية والقتل؟

أجابته أرض الناس، قالت: إنها الحياة؛ نفس تؤمن أن هويتها وذاتها لا تكتمل إلا بحياة الآخرين، ونفس تؤمن أن ذاتها لا تكتمل إلا بمحوهم. النفس التي تنتمي لطبيعة الكون تسمع الآخرين لتسمع نفسها، وتغني لتحلب طبيعة الله التي أودعها فيما خلق لتتعرف على طبيعتها، وتحب لأن الحب بساط كثير الألوان، يتسع كلما جلس عليه أحد جديد. الحب بساط يمكن أن يجلس عليه كوكبنا دفعةً واحدة. لكن النفس التي تؤمن أن ذاتها لن تكتمل إلا بمحو كل ما سواها نفس عمياء، لا تسمع ولا تتكلم إلى غير داخلها، يخيفها جمال الحياة، ويربك الحب طمأنينتها الجبانة. ثم أضافت أرض الناس بعد لحظة صمت: أيها المجهول، سألتني عن قلقي.

ذهب الصوت المجهول، ومن يدري ربما يرجع يوماً، ويتكلم بجهرٍ عال بكل ما محوناه، وأخشى أن نكون حينها محرجين كثيراً.

بكل الأحوال ستبقى أرض الناس.. هي نفسها أرض الناس.

"أجمل ما في الصدفة أنها خالية من الانتظار"

محمود درويش

مكاند فوق الكلام.. قريباً من الشعر

1- الصدفة.. مكيدة تختارنا هي للوقوع في فخها، ثم نفرق في الدهشة بها حتى نظن أنها معجزتنا وخرافتنا التي لا يملكها أحدٌ سوانا. 2- اللمس.. مكيدة من الجلد والعصب ونبض أسرع. اللمس قدحة عفوية لكهرباء غريبة، تخلق في داخلها كلاماً بلغةٍ أخرى ليست لغة الصوت، بل تحتها، وتخلق سمعاً آخر ليس سمع الصوت، بل تحته. 3- الصوت.. مكيدة معلقة بأذاننا كالأقراط. الصوت اقتراحٌ مليءٌ بالأحلام الخجولة. 4- مكيدة الشوق.. تحيك شراكاً من اللهفة واستعداد الوقت. الشوق اضطراب في قياس الزمن والإحساس به، إما أن يصير خاطفاً للحد الذي لا يكفي لإكمال حكاية واحدة بين اثنين، وإما أن يصير بطيئاً لدرجة الوقوع في اليأس من أن أحداً ينتظره أحدٌ آخر سيأتي. 5- مكيدة الرغبة.. شيء يخرج من العتمة. يسبح في كل خليةٍ وشريانٍ وعظمٍ. مكيدة تجعل الجسد يانعاً أكثر، وترقطه بالبريق من كل ناحية. يصبح الجسد شعلةً شفافة تحركها نفخه، وتطفئها نفخه. 6- مكيدة الأنا.. سؤالٌ ترجم به الخيبة على طمع الغريزة فلا يندش الجسد، لكن شيئاً ما في الروح، يقطع فيه شرخ صغير، ثم يكبر ويكبر، حتى يصير كسراً. الأنا واحدة جداً، لكنها تقسم كل شيءٍ إلى اثنين. 7- الغياب.. مكيدة تعيسة في أولها، ثم يصير الغياب نفسه كهفاً آمناً، لا يصل إليه الآخرون. 8- الحنين.. وهذه المكيدة رهيبَةٌ كثيراً، وضحاياها ليس لهم عدد. الحنين يعصر كل ثانيةٍ ودقيقةٍ وساعةٍ، ينهش ذاكرة النفس لا ذاكرة المخ، الحنين مكيدة مغروسة في كل قصةٍ كنايين. 9- العناد.. مكيدة القارب الأخير. العناد يسليخ العالق بالروح من الأغنيات والقبل والكلام. يطعن الصدفة الأولى في ظهرها، ويشنق أول لمسة وأول صوت بحبلٍ واحد، ولا يترك لا للشوق ولا للرغبة أنفاً ولا فماً ولا عينين. 10- الوفاة.. الوفاة ليست مكيدة، إنها نقطة، أو شيء يشبه استيقاظاً مقلوباً، مثل أن تقوم من نومك بعد العصر، وقد نسيت أصلاً متى نمت، فتعتقد بسذاجة أنك في الصباح، أو أنها - أي الوفاة

- تشبه أنك كنت في عبث ليس له أي منطق ولا مبرر، فإذا صحت قلت بصوت واضح
"أوووه كنت نائماً" وضحكت كثيراً من نفسك ومن الحلم.

18

المفاجأة العفوية، أية مفاجأة جميلة وحية هي بالضرورة صورة طبق الأصل عن الحياة
الأم. والمذهل أن الأمر بسيط إلى درجة محيرة، فالمفاجأة الجميلة والعفوية لا تختلف عما
يحدث بين الأطفال أو الإخوة أو الأصدقاء في شيء، لا تختلف عن مشهد صديق يتربص
بصديقة خلف جدار أو تحت درج، حتى إذا اقترب منه خرج فجأةً وصاح عليه، فيجفل
قلقاً وخوفاً، ثم يغرق، الاثنان معاً، في ضحك لا حدود له.. وماذا ستكون الحياة إن لم تكن
شيئاً مساوياً لهذا النموذج. الحياة خوفٌ شديد الوهم، وصياحٌ شديد التعصب للبذر
والحصاد وتعب الجائعين المؤذي، وفرحهم الذي يساوي زيت الفتيل.

ثم إن الحياة ليست معقدةً ولا صعبةً للدرجة التي لا يصلح فيها ولا عليها أي مثال. بل على
العكس فلا ريب أن الأشياء الأصيلة في مهدها جاءت كنموذج طبق الأصل عن الحياة
الكبرى، الأشياء الأصيلة في بداية مجيئها تكون صافيةً ونقيةً ولا يشوب صفاءها شيء
غير ذلك العالم الغيبي الذي جاءت منه، وتشير إلى الأحياء أن يقرأوا فيها شيئاً من الأسئلة
الكبيرة. الأشياء الأصيلة في مهدها لا يمكن أبداً أن يطال الزيف من حقيقة جوهرها..
وهكذا هم الآتون من رائحة القرى وطعم الماء والشجر.

19

القمصان كلها جميلة، ومعناها يصبح أجمل حين يجد الجسد الذي خلقه الله له. القمصان
جميعها كلمة واحدة، لكن في جوفها ملايين من البشر والحكايات، وليس يسيراً أيها

الإنسان الحيّ أن تجد قميصك الذي يشبه نفسك، ولا كلمتك التي تخرج من نفسك. لكل روح رقمها وقميصها وكلمتها، والذي لا يعرف حقيقة نفسه لن يعرف اللبس الذي يصلح لجسده. وحتماً كان وسيكون لكل قميص رائحة وحكاية وكلمات. القمصان حين تلمس لون النفس تصير شعاعاً.

الشاعر لو كان لاعباً فسيلف على يده اليسرى ربطة بيضاء، وستكون له ركضته الخاصة، وحين يخذله الحظ سيضع كلتا يديه على رأسه، ويعرف بفطرته أن كل فنان عظيم يخبي في أعماقه بالضرورة إما قاتلاً أو منتحراً، لكنه ضل طريقه فغنى أو رسم أو رقص أو.. قال شعراً انحيازاً للحياة وانتصاراً لها.. ولهذا السبب بالذات يكون الفنان هو الكائن الوحيد الذي يمكنه أن يرى الأشياء من جهتي الحياة والموت معاً، وفي وقت واحد.

20

يحتاج الإنسان لأشياء لا يفهم سرّ احتياجه لها.. أحدهم يحتاج لونا معيناً، وآخر يحتاج مكاناً أو طريقاً بالذات يمشيها كل يوم، وآخر يحتاج لتفاصيل في لبسه أو في غرفته أو حتى لقصاصاتٍ أو أشياء يضعها في محفظة جيبه. حاجة أي أحدٍ منا غالباً لا تستطيع القفز على ذاكرته، وكثيراً ما يكون مصدر حاجاتنا هو ما استقر في دهايز أعماقنا مما عشناه من الماضي. أظن مصدر حاجاتنا هو الماضي بشكلٍ أكبر مما تمليه علينا حاجات واقعنا الحاضر.. أحياناً لا يتساءل أحدنا حتى عن مسألة احتياجاته المجهولة تلك، ولا يأتي على باله لماذا يقيم جزءاً من حياته عليها مهما كانت صغيرة. لنقل أننا لم نعتد على التساؤل عن معنى الأشياء من حولنا.. لقد تشكلنا في ثقافة وواقع يعجّ بالإجابات، حيث لكل شيءٍ إجابة، وعلى كل شيءٍ إجابة، ولا تكاد توجد فرصة صغيرة للعقل كي يتساءل إلا ويقفز في وجهه ألف مجيبٍ بألف جواب، وفي يد كل واحدٍ منهم وعيدٌ لا نهاية له، إذا نحن عدنا للتساؤل مرةً أخرى ولم نسلم مصائرنا لكلمته هو.

لكن هناك نوعاً من الأشخاص لا تظهر عليهم أية أزمات حيال ماضيهم، ولا يعيشون قلقاً كبيراً تجاه واقعهم، ويمشون نحو مستقبلهم بثقةٍ مليئةٍ بالرضا والإيمان. هم قليلون جداً، وهؤلاء القلة يحتاجون إلى صدف الحياة فقط، هي الشيء الوحيد الذي يشعرون أنه يمنح حياتهم المعنى الأول، قبل أي شيءٍ آخر.. وهكذا على الدوام يبدو الرجل الذي لا يربكه ما يربك الآخرين حيال الوقت، لأنه مشغولٌ بترقب الصدفة التالية. الإنسان العادي مهما كبر يبقى طفلاً صغيراً لذاكرته، لكن الإنسان المغاير يستطيع أن يكون ابناً لاختياره وتمييزه.. أما الإنسان الجميل فهو على أية حال سيبقى ابناً مؤمناً وباراً بالصدف.

21

إرشادات، عامة وغير معلنة، للسلامة:

- 1- إذا أردت أن تلتقط صورة لنفسك، فتصوّر وحدك. كل صورة تجمع اثنين.. تنطوي على مصيدة مؤجلةٍ للحنين. كل صورة يمكنها أن تكون صيغةً ضخمةً وموحشةً للعالم. 2- قبل أن تغادر لا تترك أثراً لشيءٍ يخصك. صدقني إذا قلت لك بأن أشياءنا التي نتركها وراءنا تشدنا من أنوف قلوبنا إليها، مهما كانت صغيرة ولا قيمة لها. هذه إحدى لعنات الأشياء التي نهتم لتركها خلفنا. مثلاً؛ لا تقلّم أظافرك في بقعةٍ لا تثق فيها بالحياة ولا بالأغاني. 3- اقترح عليك أن لا تورط نفسك في سماع أية حقيقة بصحبة آخرين. يمكنك أن تسمع الأكاذيب بين من تشاء. اسمعها بين كل البشر لو شئت، لكن تذكر أن الحقيقة حين يعرفها اثنان، فأحدهما غالباً سيكذب، والآخر قد يكذب. 4- تحذير: ما يزيد القلب الحي ألماً أن مساحته تسبق الأوجاع دائماً بخطوة، فلا هو ينتهي، ولا هو يقضى عليه، يبقى في هذه الملاحقة اليومية. هذا قدره. 5- انتظر حتماً، لكن انتبه فكل نفس مهياة للغرق في حوض أحلامها، وهذا شيء لا أعرف كيف يمكن وصفه أو تشبيهه، املاً حوضك ببخار الأحلام فقط، هو اختيارٌ جبان بالطبع. تعرفون أنه لم يوجد مجد ذات يوم إلا وقد سبقه حلمٌ بسنين. 6- حين تقسو عليك الأيام، فلتتصرف بعناد، وكن أقسى من حياتك عشرة أضعاف.

انتبه.. لا تطمئن للذين يضعون أيديهم على كتفيك فوراً، باستثناء أمك. ثق بالذين تخجل من الهزيمة قدامهم.

22

- لن يحزم الليل متاعه، لن يجد مكاناً ليذهب إليه.. - تحبسه في الظلمة؟ - في قلب فتاة كبرت وهي لا تعرف كيف تلبس نعلها.. - ترميه في الجو؟ - في روح صبي يرمق قلبه من بعيد..

مرة أخرى عن الليل والكلمات، أفكر أن السواد في هذا الكون اللانهائي هو الأصل، وأن الضوء والنهار شيء طارئ وعَرَضي. ومهما كان عدد الشموس إلا أنها لا تكاد ترى ولا تساوي شيئاً في عتمة الكون الكبيرة والممتدة. الليل هو اللون الأزلي الذي ترجع إليه صبغات الأشياء. اللغة أيضاً ترجع إلى أصلها الليلي. لا توجد كلمة لم تنطق أول مرة في الليل.

ليلاً، يقول واحد لواحدة: أنت.. ووجهاً لوجه، وقفزاً على الأوجاع الصغيرة، وكل ما يجب أن يقال، وما لا يجب أن يقال. هذا أنا أمسك بجديلة سهرك، وأهز رأسك لأقصى ما أطيق، وأصيح في عينيك: قولي أنك لن تتألومي. قولي أن الذهاب صغيرٌ وهامشيٌ للدرجة التي لا يمكنه أن ينال منّا.

وليلاً، تقول واحدة لواحدة: اسمع؛ قبل عام من الآن، جاء الحلم بعباءته المطرزة، وكان يفتش عن روح مقطرة وخالية من الشوائب، جلس على صخرة عالية، وتفرد في أجساد الناس من فوق جبالنا، وفجأةً لمحني أربط غصناً نحيلاً بمنديل أمي، فقال "هذه.. هذه."

وليلاً، والدة توصي ابنتها؛ لا تأوي إلى فراشك وأنت لا تريدين النوم، ولا تنامي قبل أن توصدي الشبابيك والأبواب، فالريح ليس لها موعد.

وليلاً.. رجلٌ يقرص أذن ولده: لا تجلس عند الباب، ولا تترك لأحدٍ أن يرى ماء عينيك، ولا تأخذ شيئاً مما في أيدي الآخرين، لكن تذكر أن عليهم أن يخلعوا رقبتك قبل أن ينتزعوا ما في يديك. تفهم!

وكل ليلة تتذكر تلك الوالدة كلمة حلوة، وفي سرّها تطلب من الله أن يحرس ابنتها من كلمات الرجال. وكل ليلة يتذكر ذاك الوالد شيئاً قديماً كان في يده.. ويمسح عينيه.

23

• كتابات الشعوب: أغاني الفجر

الفجر.. الشعب الذي لا ينتمي للبلدان والأعراق ولا لسماءٍ واحدةٍ ولا لأرضٍ واحدة، المخلوق من ركض الخيول ومياه الأنهار والسفر.. أكثر ما يشغل بال الفجر هو المطر والنار والرحيل.. يكبر الفجري ليبحث عن لونٍ جديد يخلطه بألوان لبسه وحياته، وأغنيةٍ جديدة يؤلفها أو يحفظها لتسانده عندما يقرر أن يعبر أرضاً إلى أخرى، يعيش كي يعدّ أساوره وجليته البسيطة. مشغولاً بالخواتم والقلائد والرقص.

عندما يهرول الفجري فإنه لا يفعل ذلك لأن عقيدةً أو جذراً يملي عليه حياته من الخلف.. إنه يعدو عندما يؤلمه الفقر والجوع، عندما تضايقه الحقيقة، فيجابهها بالسفر والمشى إلى قدام. الفجر.. الشعب الذي لا يعبأ بأي ماضٍ ولا يتوقف عنده، الشعب الذي يبحث عن مستقبلٍ جديدٍ لحياته على الدوام، وشرطه الوحيد أن لا ينفصل وجوده عن الحب والطبيعة والغناء، أن لا يقف شيءٌ أو أحدٌ ما بينه وبين حرّيته.

وهكذا يغني الفجري بالشعر:

"1/ ما هذا الذي فعلناه. سرقنا خيولاً. ربطناها إلى العربات، وهربنا بعيداً بعيداً.

2/ صباح الخير أيتها الجميلة.. امتطي الحصان الأبيض وانطلقى كالرمح. سأنتظرك في الغابة، في خيمة لم يولد فيها أطفال بعد. إن لم تجيئي سأستل السكين من قطعة الخبز، أمسح منها الفتات، ثم أصيبك في منتصف القلب.

3/ إنهم يبحثون عني، يبحثون. لكنني هربت منذ زمن بعيد. لو شاء رجال الدرك الإسراع بينادقهم المدوية فسأحتمي بالظلام، وأتسلل إلى الغابات.

4/ استيقظي أيتها الأنثى استيقظي، وأوقدي الشمعة. جلبت خيولاً بسريرة تامة جلبت لك منزراً مطرزاً بالذهب.

5/ أسرع أيها الأخ، أسرع. لتجنب المدينة، وإلا أمسكوا بنا عند الجسر. على الجسر يقف السادة الكبار، رجال الضرائب، إنهم يطالبونني بهوية، لكني لا أملك هوية ولا وثيقة. ماذا أفعل عندما لا أجد وثيقة لحصاني، ماذا أفعل عندما يدركني الأوغاد، رجال الضرائب.

6/ جرينا خلف الصبيان، إلى الغابة الكبيرة، وحول الحقول الواسعة، إلى الغابة الخضراء الكبيرة، حملنا أواني صغيرة لجوع الفجر الكبير.. وتحت الآس اضطلع الفجر، ونساؤهم الرشيقات طبخن دجاجاً مسروقات، لجوع الفجر الكبير."

• كتابات الشعوب: قصائد الهنود الحمر

الهنود الحمر.. الشعب الذي كانت أرضه بالنسبة إليه معبداً، كل حصة وورقة شجر وقطرة ماء تعني لهم صلة وصلاة لله. تعلموا من آبائهم وأجدادهم أن الأرض عار الرجل وشرف المرأة، وأن الذي يتنازل عن أرضه يبقى أخيراً دون عارٍ ولا شرف، لكن ماذا حدث.

جاء المستعمرون البيض، مدججين بالعبيد السود الذين أحضروهم من أفريقيا خصيصاً للفتك بحياة ذلك الهندي الأحمر والاستيلاء على أرضه، وأمام آلات المستعمر وقوته ولدت

ثورات وبطولات رهيبة لذلك الشعب، وطلع من بينهم ثائرون صارت قصصهم لمجدها أقرب ما تكون إلى الأساطير والخرافات. وبالرغم من أنهم هزموا أخيراً إلا أنهم تركوا حكايات خالدة، وقصائد عظيمة، وتركوا عاراً يفضح الأقوياء، حين لا يابهون في طريق معاركهم بغير طمس كل شيء وكل أحد والنهب والدم، دون أن يحترموا حتى بعد انتصارهم الحاسم وجدان تلك الأرض وثقافتها وتاريخ أهلها.

وبين صمت القهر وصرخة الحرب، وبين حركة الخيول وسكون النجمة، ومن بين جماجم الأطفال والنساء كان الهنود الحمر يصرون على الغناء والرقص، ويقولون شعراً عظيماً، مليئاً بالسواد والاعتزاز بالنفس، والتعالي على الجراح وطعنات الغدر. هذا الشعر:

"1/ وهنا شعبي الذي ينام، منذ أمد بعيد، وناسي لم يكونوا مجرد أحلام.. سيارات عتيقة بلا محركات، مركونة في واجهة البيت.. أو كلمات غاضبة تتوسل صفاء الذهن، أو الذين سرقوا منك ومن أجلك، ولا يريدون أن يتذكروا بماذا تدين لهم. أحياناً أنا أيضاً أرغب أن أغرق في النوم.. أغمض عيني عن كل شيء، لكنني لا أستطيع، لا أستطيع

2/ كنت أخلط النجوم والرمل أمامه، لكنه لم يستطع أن يفهم.. كنت أحتفظ بالبرق الناجم عن الرعد في حقيبتني أمامه تماماً، لكنه لم يستطع أن يفهم، وكنت قد قتلت آلاف المرات تحت قدميه مباشرة، لكنه لم يفهم.

3/ مع الذعر، أحياناً أسمعهم ينادوني.. لكن قفزة الفهد الخفيفة تفصلني عن الأرض، لتتركني وحيداً مع طاقاتي المتحررة بجنون، لأصل إلى صناع الشمس، وأهتدي إلى نفسي في مكان جديد..".

• كتابات الشعوب: صوت الأمازيغ

أيها الآتون؛ سنحاربكم من أكبر شيخ حتى آخر رضيع. كأن هذا ما كان الأمازيغ يقولونه وهم على مدى تاريخهم، يقولونه لأنهم لا يستريحون، من حربٍ إلى أخرى، ومن رحيل إلى رحيل، ومن فاجعةٍ لفاجعة، وبالرغم من كل هذا إلا أن خيولهم لا تتوقف عن الصهيل، وفرسانهم لا يغمدون سيوفهم إذا استلواها، وعندما يقول الزمن سطوته ويبسط عليهم أصحاب المال والقوة نفوذهم، فإنهم لا يتوقفون عن الصراخ بكلمتهم بكبرياتها وعمقها، ولا يكفون عن لوم الحياة وتقلباتها، وأخيراً يتركون علاماتهم في قلوب صغارهم، فيعلمونهم كيف يقولون للآخرين خذوا أي شيء، لكن اتركونا لأجدادنا وحكاياتهم، لا تلمسوا لغتنا ولا هويتنا. كلمتنا هي حياتنا.

والشعر عند الأمازيغ طريقة حرّة وشجاعة شفوية وجماعية في مواجهة الحياة بما فيها من حشود الأقدار المتقلبة والأيام التي لا نهاية لتعبها. الشعر عند الأمازيغ هو التاريخ الذي ينقلونه عن أهلهم من آلاف السنين. يرقصون به في أفراحهم، ويبكون به على قبور ذويهم وفرسانهم.. الشعر عند الأمازيغ طريق أولى وأخيرة للبقاء والخلود.

هناك أغنية عظيمة اسمها "A vava inouva" بديعة الحوار وشديد الجمال والعذوبة والتاريخ، بين فتاة أمازيغية اسمها "غريبا" ووالدها العجوز "إينوفا"، وكانا قد اتفقا أن ترجّ أساورها عندما تطرق الباب، كعلامة بينهما عندما تعود، كي يميزها عن وحش الغابة.

قصيدتان من الشعر الأمازيغي:

1- تغني الشاعرة الأمازيغية المغربية "مليكة مزان" في ديوانها "حين وعدنا الموتى بزهورنا المستحيل": تعالَ شهياً، كما أوصت أمك من أقاصي النفي. تعال أنت.. هنا القاطفُ الأشهى، وأنا لا شك في اتضاح جسدي بين يديك..

2 - وهذا المقطع من الشعر الأمازيغي القديم: هل يوجد حب مجاني؟ هل يهب المرء قلبه عشوائيا

وهو معصوب العينين.. اخرجني من مخبئك كي أعرفك. أحبك ولا شيء يجبرني على الرحيل قبل أن أنال منك قبلة وأشفي غليلي الخيل لا تركض إن لم تنل من القوت نصيبها. وددت أن تكوني في بيتي.. يا حبيبتى ما قيمة قطعان الغنم؟ حصاني الرمادي وأنت هذا يكفيني.. لو كان للعالم الخلود.. لكان حبك أيضا أبديا ولكن الثروة خدعة، وإن كانت ترضينا أحيانا. سعيد هو من يزرع الشاي على ظهر حصانه.

24

النساء أقرب للموسيقى من أي رجل مشى على هذه الأرض، نحن الرجال نسمع أصوات الدفوف والكمنجات ونقرات الأوتار، لكننا لا نستطيع أن نقبض على الصوت بأصابعنا، ولا أن ندهن به صدورنا، أو نخبئه كالرسائل تحت وسائدنا ولا خلف أحداقنا. النساء يفعلن ذلك، ولا يمكن لامرأة أن تنسى صوتاً مسها ولو في الحلم. النساء لم يصنعن الموسيقى ولا الغناء، ولا صنعن شيئاً من تحولاتها. الرجال فعلوا ذلك لأنهم استحوذوا على السلطات والثقافات والأديان والفنون، منذ مزامير الرعاة. الرجل عزف وغنى آلاف السنين، وأحست المرأة بالصوت أكثر منه.

عزف الرجل وغنى، لكننا من أول يوم تولد وتلد المرأة فتصيح، وتفرح وتغضب وتحب وتنفرد وترغب وتلتقي وتودع وتنادي وتشتتم.. فتصيح. الصوت ليس مجرد هواء وحزمة من رنين الحبال في أفواه النساء. الصوت ينبت وينمو في المرأة كما تنمو ساقاها ويدها وشعرها وحنجرتها، وكما يكبر قلب المرأة تكبر مساحة الصوت في روحها، تكبر حتى يصير الجسد كله سمعاً. المرأة تسمع بجبينها وصدورها وحتى باطن قدميها أبلغ مما يسمعه أي أحد بأذنيه. إن امرأة واحدة فقط عندما تسمع أصواتاً جميلة جعلتها تمشي دون عمد أو تهز

يديها أو جنبها أو رجليها دون عمد، ستكون قد رقصت وهي تمشي عفواً فقط، أكثر مما انتبه رجال العالم في حياتهم فرقصوا.

24

- العلامات: ماء ومضمضة، ثم غفيرَ فهتان، قمصانُ فُبُقغ - زد علامات.. - صبَّحَ كرفّة عين. - هاه! ما العلامة؟ - ذخيرة شتاء، ليلٌ من ماء وبروق..

الشتاء كعادته في كل مكان، حين يأتي بأيامه الأولى، وقبل أن يذهب بقليل، يفعل الفعلة نفسها.. يفتح صدره، ويدخل يديه في أكمامه، ويرمي بكل ما فيها من الخدع الرقيقة، ثم يفرد سبّابته الطويلة ويخطّ بها خطأً من الرذاذ الحميم على جسم الزجاج والوسائد، وكالعادة في هذا التوقيت، قبيل رحيله بقليل، يفتح الشتاء فمه لتفوح منه وجوهٌ ساكنة، وعلى الشبابيك يطبع قلوباً تتهياً مع جلجلة كل رعد للقفز في فحّ الحلم.

النسوة فيصرن أقل نوماً، وأكثر شغفاً بلمعة السماء، وصوت المزاريب.

في الشتاء.. يصير هذا الليل شجرةً سوداء، وخلفها رجالٌ كثيرون، كثيرون بعدد الخطوات التي مشت إلى البيوت التي نمت الأعشاش على نواصيها المهجورة. وبينما الشعراء المساكين تخونهم كتابة الرسائل الطويلة.. سيكتفون بقلقلة أسنانهم. الشعراء يثقون بليالي البرد، والرجال منذ الأزل مفتونون بالصواعق والودق.

25

"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"

النّصري

الذين جاؤوا بالغناء والموسيقى إلى العالم لم يتوقعوا حجم الهدية التي منحوها إياه، وأيضاً لم يتخيلوا أبداً هذا المدى من الألم الذي فتحوه على مصراعيه في وجوهنا، لأن الأغنيات لا تسمح للوجع بأن ينسى، لأنها تعيده كما لو أنه للتو حدث كلما سمعناها. كل هذا التاريخ من الآلات والأصوات.. لمداراة عجزنا عن قول ما نريد حين تنال الأيام منا فوق ما نطيق الكلام عنه. ولا أدري أيهما حاولنا نحن بني الإنسان أن نفعل أولاً، هل غنينا قبل أن نكتب، أم كتبنا قبل أن نغني؟ أظننا تكلمنا، ثم غنينا، ولم نكتب إلا بعد أن مرّ وقت طويل جداً على الكلام والغناء، وحتى حين كتبنا بقينا في عجزنا، وفي تمام حاجتنا للغناء. لقد عرفنا إننا في هذا التيه الهائل من الكلام إلى الغناء إلى الكتابة، أننا ما كنا نفعل شيئاً غير أن نداري غموض هذا الوجود وقسوة هذه الحياة.

26

بوب مارلي.

قبل أربع سنوات من وفاته على سريرٍ أبيض كانت قد أصيبت إحدى أصابع قدمه بجرح عام 1977، ألمته كثيراً فذهب للطبيب ليخبره بأنه مصاب بالسرطان في تلك الإصبع بالذات ويلزم بترها، السرطان لم يكن قد تجاوزها بعد، لكن الجاماكي ذو العبقرية التي عبرت العالم رفض ذلك. كانت تربطه علاقة غريبة بمعتقدٍ كان اسمه "الرستفارية" يمنع المساس بالجسد.. وبعد أربع سنوات كان السرطان قد ضرب جسد بوب مارلي كاملاً من إصبع قدمه حتى آخر دماغه، وهكذا قضى وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره..

الجاماكي الأسمر الذي دخل أمريكا عام 1966 ليبدأ من عامل نظافة، يشطف أرضية فندق دوبونت وحمّاماته، هو نفسه بوب مارلي الذي اختارته جريدة النيويورك عام ألفين

أكثر الفنانين تأثيراً في العالم في النصف الثاني من القرن العشرين، واختارت الـ BBC أغنيته One Love صوتاً للعالم في تلك المناسبة، ومنحته جامايكا أرفع أوسمتها قبل شهر من وفاته تقديراً لدوره في نشر السلام والحرية داخل جاميكا وفي أنحاء الأرض.

27

نادية أنجومان

ضرباً حتى الموت، ضرباً حتى الموت، هكذا قضت الشاعرة الأفغانية نادية أنجومان، لأنها قالت كلاماً جميلاً في الحياة، لأنها آمنت بكونها إنساناً يحق له أن يدخل عالم الكلمات. ضربها زوجها حتى الموت. ولماذا؟ لأنها كتبت قصائد جميلة، وقالت إنها طير.

الشاعرة الأفغانية "ناديا أنجومان" خمسة وعشرون عاماً، طالبة في كلية الآداب، جامعة "هيرات" بعدما أصدرت باسمها الحقيقي كتابها الوحيد "غولي دودي" أي؛ "الزهرة القرمزية"، الذي منحها انتشاراً شعرياً واسعاً في أفغانستان وإيران. انقض عليها زوجها الأفغاني "فريد أحمد جيد ميا" وأوسعها ضرباً حتى الموت..

تقول أنجومان:

"ضوء النجوم في القفص

كيف قلبك إذن!

لا شك في أنه يرفرف بوحشية،

دائماً يغني ضد الظلام،

الظلام الذي يعرفه لي شعر أخيراً بلدغة الخدر، بالموت..

تمر بهدوء هذه الرؤية المختصرة للحياة،

للشخص الذي لا يرى أبداً،

للضوء الخالص.

يمسك قلبك أنينك المسمم،

بمخلب يزدرد كل خوفك حتى الآن!

لم يكن مثلك من باع قراره ولم يقو على الغناء،

لا تكن هادئاً،

احتضن قبرك، قفص المرمز الأبيض، المساحة الشاحبة الرثة البائسة..

لن أسجن هنا!

كطائرٍ حكيم تحلق كلماتي عالياً،

بحريةٍ تحلق..

تطير وتعيش مرة أخرى..".

مُنحت "غونكور"، أعرق الجوائز الأدبية في فرنسا إلى الروائي والسينمائي الأفغاني عتيق رحيمي، عن روايته "صخرة الصبر" والتي خرجت من رحم فيلم توثيقي أنجزه هو نفسه عن مقتل مواطنته الشاعرة الأفغانية ناديا أنجومان بيد زوجها عام 2005.

رحيمي فعل كل ما يستطيع لمقابلة الزوج القاتل في السجن ونجح في ذلك أخيراً، لكنه
وجده في غيبوبة، بعدما حاول الانتحار. ويقول إنه تساءل، وهو قبالة جسد الزوج الغارق
في الغيبوبة، لو أن الشاعرة القتيلة هي التي تقف مكانه: ما الذي يمكن أن تقوله لزوجها
القاتل؟!.

ناديا أنجومان:

"احتضن قبرك،

قفص المرمم الأبيض،

المساحة الشاحبة الرثة البائسة.

لن أسجن هنا!

كطائر حكيم تحلق كلماتي عالياً،

بحرية تحلق..

تطير وتعيش مرة أخرى."

28

• رسول حمزاتوف

قال رسول حمزاتوف مرة: "هذه أرض ليس بها أغنيات.. فلنتجاوزها".

كانت هذه العبارة في روايته الكبيرة والعظيمة "بلدي داغستان". إذا فلسنا نحن من يتأثر بالطبيعة وشكلها فقط، هي أيضاً تفعل. حين تجذب النفوس ويخلو وجدانها من الإيقاع والصوت والحلم، فإن الأرض تجذب تبعاً لذلك. البشر الذين يستبد بأرواحهم القحط لا يمكنهم أبداً أن يقيموا الحياة.

الإنسان منذ آلاف السنين، إذا تعب غنى، وإذا فرح غنى، وإذا تألم، أو جاع، وعطش، وحلم، وأحب، واشتاق، وغضب.. غنى. كل إنسان مرهونٌ بأغانيه، يغني مع أمه وهو في حجرها، يغني بمفرده، يغني مع آخرين من حوله، يغني مع غرباء، ويغني مع شعوبٍ بأسرها وعن بكرة أبيها.

الأغنيات هي اللغة العليا التي ترفع الروح من واقعها إلى قزحٍ رحيمٍ وملونٍ.

ولد رسول حمزاتوف بقرية "سادا" 1923 بجمهورية داغستان. كتب الشعر وهو في التاسعة من عمره، صدرت له عشرات الكتب مثل (قلبي في الجبال - النجوم العالية - المشهد الأخير - عجلة الحياة - أيام القوقاز العاصفة...) لُحنت أشعاره و تغنى بها الناس في روسيا وداغستان. حاز رسول على عشرات الجوائز والأوسمة، بما فيها جائزة أعظم شاعر في القرن العشرين، وبعد مجده هذا كله قال مرة: "الكلمات التي لم أقلها أغلى على قلبي من كل الكلمات التي قلتها".

يغني رسول حمزاتوف:

"حبيبتي.. إن كان هناك مائة مخلوق في العالم يُحبونك، فاعلمي أن حمزاتوف أحدهم، وإذا كان الذين يحبونك عشرة فقط، فتأكدي يقيناً، بأن رسول حمزاتوف، هو أحدهم أيضاً، أما إذا كان لا يحبك في هذه الدنيا، سوى مخلوق واحد، فاعلمي بأنه حتماً سيكون رسول حمزاتوف. أما إذا كنتِ حزينة ووحيدة، لأن لا أحد يحبك في هذا العالم، فاعلمي أن رسول حمزاتوف قد مات".

• لويس أراغون

أذكر أنني قرأت كلماتٍ فتغيّر في حياتي شيء، وأذكر أنني رأيت ألواناً وأشياء جميلة فتغيّر في حياتي شيء، وأذكر أنني سمعت أغنياتٍ من هنا وهناك فتغيّر في حياتي شيء، وطالما فكرت كم أنا مدينٌ لهؤلاء الذين لا يعرفون عني أي شيء. لا يعرفون أنني موجودٌ على هذا الكوكب أصلاً، بعضهم مات، وبعضهم حي، وأتساءل أليس من العزاء في شقوة هذا الفنّ الشاسعة أن يعرف خالقوه أنهم متّوا حياة شخصٍ ما - لم يخطر ببالهم - في بقعةٍ أخرى من الأرض..

مثلاً.. كيف لشاعرٍ فرنسيّ مثل لويس أراغون وهو يرقد في قبره، أن أناساً يتحدثون عن كلماته هناك في بلدٍ ربما لم يره وهو حي، إلا على صورٍ للكرة الأرضية وخرائط العالم، أو ربما حدث ورأى عنه شيئاً في نشرات الأخبار. حتماً لم يخطر بباله أن أحداً من هناك، من آخر العالم بالنسبة له، سيقراً صباحاً كلماته، ولا أن أحداً هناك سيسهر مع عيني إلزاه..

قال لويس أراغون في عيني إلزا:

"فم واحد يكفي في شهر مايو، بكلماتٍ لكل الأغاني وكل الحشرات.

قليلة جداً رقعة السماوات لملايين الأنجم،

التي كانت تلزمهما عيناك وسحرهما.

الطفل الذي تسيطر عليه الصور الجميلة،

وعندما تحديقين بعينيك لا أدري إذا كنت تكذبين!

كأن المطر الغزير قد فتح أزهاراً برية..

وسقطت في شباك النجوم الطائرة.

وحدث ذات مساء جميل أن تهشم الكون على صخور الشاطئ التي أشعلها القراصنة،

وعينا إلزا تتألق فوق البحر..

عينا إلزا".

لويس أراغون شاعر فرنسي (1897 – 1983) التقى بالكاتبة الروسية "إلزا" في عام 1928 ووقع في غرامها، وكتب فيها دوواينه (إلزا – نشيد إلى إلزا- عيون إلزا – مجنون إلزا)، وله أعمال كثيرة، وترجم إلى لغات كثيرة، وصارت كلماته مسرحيات وأغانٍ تجوب العالم. قال لويس أراغون مرة "إن تراث الشعر الجاهلي العربي.. أهم جزء من التراث الشعري الإنساني".

• نيكولاس كازانتزاكس

في الصفحات الأولى من كتاب مذكراته المبهر (تقرير إلى غريكو)، والذي كتبه ليكون كلمته الأخيرة، وهو في سنوات عمره التي شعر أنها آخر ما تبقى له، يقول نيكولاس كازانتزاكس: "أنا لم أتعب، لكن الشمس غربت".

كازانتزاكس، أو زوربا، أو أنتوني كوين.. ثلاثة متطابقون تماماً، لا لا، ليسو ثلاثة، إنهم واحد له ثلاثة أبعاد. كازانتزاكس هو الروائي اليوناني العظيم، الذي صار مجدداً لليونان، مثله مثل حكايات آلهتها وحروبها وملاحمها وأغنياتها، التي توالت منها تواريخ هنا وهناك في كل صقع من أصقاع العالم.

"زوربا".. هي الكفن الخالد لكازانتزاكس. في الرواية أن صديقه المهندس اشتكى من هزيمته، فأسكته زوربا فوراً، وقال بسخرية: "ما الذي تعرفونه أنتم عن الألام!".

• إرنستو ساباتو..

إرنستو ساباتو ولد في بونس آيرس بالأرجنتين عام 1911 وعاش هذه التجربة، مائة عام بالتمام، قطع سنواتها طويلاً وعرضاً حتى جاءت اللحظة التي وضع قلمه ونظارته وذكرياته وأشياءه، وترك لنا ثلاث روايات فقط، كل واحدة منهن أدهى من الأخرى (النفق – أبطال وقبور – أبدون)، ترك للهباء قرناً كاملاً، ولم يخرج منه إلا بتابوته ومترين من الأرض، حيث رقد هناك في فراشه الأخير في 2011.

انقطع للفن الذي يقول عنه: "إن محاولة فهم عمل فني هي، إلى حد ما، كالرغبة في اختزال الكراهية والحرب والحب والأحلام إلى مجرد أسباب خالصة. الفن يشبه الأحلام إلى حد بعيد. تلك الرسائل التي تأتي من أعماق لاوعينا: سخيقة، متناقضة، لاعقلانية".

ساباتو يقول: "من الواضح أن الشباب يريدون تغيير هذا العالم الفاسد. الأسباب كثيرة: حروب مريعة من أجل قضايا دنيئة، أرقام عن الجوع تظهر في جميع الصحف ولا يمكن إلا أن تثير الاشمئزاز في نفوس الكائنات الأشد حساسية، شعوب مضطهدة. الأسباب كثيرة وردود الفعل ليست دائماً واعية... نيته تدمير قيم مجتمع تقوم إلى حد بعيد على أساس من الامتيازات والكذب والفساد".

ويقول عن نفسه: "أعتقد أنني أنتمي إلى سلالة تتلاشى. أو من بالمقاهي، أو من بالفن، أو من بكرامة الفرد، أو من بالحرية".

• ياسوناري كاواباتا..

يحكي جابريل غارسيا ماركيز مرّة أنه كان كلما ذهب لزيارة أصدقائه في اليابان وجلس معهم فإنه يعدهم من حين لآخر، لأنه يمكن أن ينتحر أحدهم بأية لحظة. والمقولة في ظاهرها طريفة، لكنها في عمقها تحمل بعداً آخر تماماً، فاليابانيون الذين يدينون بعقيدة الشنتو يؤمنون بأنه يلزم المرء أن يظهر نفسه من الأخطاء باستمرار، كيف تكون روحه خفيفة، يمكنها أن تحوم حول الأنهار وفي الغابات وعلى قمم الجبال بعد الموت، والانتحار لديهم درجة عالية من التطهر، كما أن للانتحار لديهم بعده التاريخي الشجاع، الآتي من الطيارين الانتحاريين (الكامي كاز)، الذين واجهوا الأمريكان بكل ضراوة في الحرب العالمية الثانية، لذلك فمهما يكن الانتحار شيئاً كريهاً وعلامة فجة ورهيبة على الضعف والعجز عن مواجهة الوجود، إلا أنها لا تأخذ هذا المنحى عند اليابانيين.

الياباني ياسوناري كاواباتا، وبعد نيّلة جائزة نوبل بأربع سنوات، وبعد أن ضربت رواياته كل جهة في هذا العالم، وُجد ميتاً في شقة صغيرة، في العام 1972 ولم يتوان الإعلام الياباني، ولا أصدقاؤه باعتبار ميته تلك إنما كانت انتحاراً حزيناً من جهة، وشجاعاً من جهة، وفي كلا الحالتين فانتحار كاواباتا – إن كان صحيحاً – فإنه بلا ريب يرجع إلى التعاسة الفكرية الرهيبة التي كان يعيشها، التعاسة التي يعيشها مسنّو المعرفة والحياة، وعبر عنها بعمله الحزين؛ الجميلات النائمات.

"الجماليات النائمات" بلغ تأثيرها ماركيز فكتب "ذاكرة غانياتي الحزينات".

كاواباتا يتحدث عن عجوز يدعى "إيغوشي" ترهق روحه مأساوية حياته، ليجد متنفساً لمراراته في نزلٍ لرذيلة غريبة، تحفظ له كبرياء العجز الذي يواجهه كبار السن المجروحين في رغباتهم، فينام إلى جوار فتيات بغاية الجمال، لكنهن لا يشعرن به، تحت تأثير المنوم، والذي يحدث أنه يقضي الليل في تأملهن، والذهاب بعيداً في جحيمه الداخلي، نحو ذكرياته، نحو الطفولة والعدم، نحو الأفكار والموتى، نحو الحياة التي توشك أن تتجاوزته وترميه وراء ظهرها وتمضي.

يقول كاواباتا عن عجوزه:

"لعل إغواء الشر الذي أحسه يتململ في قلبه، هو ردة فعل مبعثها الفتاة، غير أن هذا الإثم، هذا الشيء الفظيع المصحوب برعب يرتعد، كان يطفو على روح إنغوشي دون أن يتخذ شكلاً محدداً".

• سعيد محمد نور..

هذه الروح أصلها من السودان وجاءت من مصر.. لا أمل سماعها منذ عرفت هذا الكتاب العميق البليغ الكريم؛ القرآن.

منذ كنت طفلاً وأنا أسمعه، منذ كانت تلاوته تختلط ببخور الجمعة، ولا أحصي أبداً كم حزناً، وهذا الرجل يضع يده على أذنه وكتفي بصوته الشجيّ معاً، لقد كان وما زال رقيقاً حتى الفجر، حتى اللحظة، بنبراته، بعلوه وانخفاضه، بهمسه وضجيجه، بحنّوه وتلاشيه.

سعيد محمد نور، السوداني الآتي من مصر.. جاء للحج في ستينات القرن الهجري الماضي، وسجلت له الإذاعة السعودية حينها الكثير، ثم رحل بعد الحج للكويت وهناك عاش ما بقي من حياته التي لم تطلها التبجيلات ولا الألقاب ومناقب الزيف حتى قضى.

28

تحضر الحالة المعقدة في كل حادثة، تحضر فرصة النجاة والرؤية، وتحضر القوة التي تنهش نفسها.. ولا تريد سماع شيء.. بينما الشاعر ينفذ بخفقة جناح، قلباً ليستيقظ، ليستيقظ قبل أن تصير الأمكنة مخابى.

في ردهة بوول شاوول، مثلاً؛

- كنتَ شفافاً تلك الليلة.

- وقعت مرّاتٍ قبل أن أصل إليك.
- لكنك ناديتني بأسماء كثيرة.
- لم أر ما يشبه الندامة تلك الليلة.
- لكنك أحصيتني قبل أن تضمّني مرّات.
- لم يغلّق أحد النافذة خلفي.
- لكنك قلت إن الموتى لا يأتون دائماً.
- وبَر جسدك أثار أياماً كثيرة فيّ.
- لكنك تذكّرت فجأةً سروةً ذابلة.
- عندما تنفست في شعرك عبّق في جسمي عشبٌ غزير.
- لكنك أغمضت عينيك مرّات.
- تنفست فيّ كمن يكتشف فجأةً جريمة قديمة.
- لكنك رفعت وجهي كمرأة ولم تنظر.
- انتشرت فيّ كمن يحطم كأساً بيديه.
- تكلمت كثيراً عن الشارع والرّصيف والمقهى وفجأةً عن الموت.
- عندما وصلت إلى غرفتي لم يكن أحد في انتظاري.
- ثمّ تكلمت عن المصابيح والورد والشجر.

رأس الشباب الغاضب..

في مجلة العربي الكويتية العريقة، في عددها 96 في العام 1966 كتب الدكتور محمود السمرة مقالاً عن الروائي الألماني، ذائع الصيت، غونتر غراس، في مقالة سماها "رأس الشباب الغاضب"، واصفاً روايته "طوبة الصفيح" التي صدرت عام 1959 بأنها نقطة تحول في الأدب الألماني (لاحقاً غراس أحرز نوبل عن الرواية نفسها عام 1999) وأخرجته من التقليد إلى الأصالة. وكاتب المقالة كان قد وصف هذا الروائي بأنه رأس حركة الشباب الغاضبين في برلين، تجمع بينهم غضبتهم على الشيوعية والرأسمالية والنازية، وكل القيم التي يحترمها مجتمعهم، معتمدين في حركتهم تلك على التوسع في الكتابة والإنتاج الأدبي والفكري.

يقول هاينز فون كريمر، وهو أحد الشباب الغاضبين، شارحاً أسباب غضبهم؛ "إن ألمانيا اليوم نسختان، إحداهما مترفة، تعتني بكل ذرة في جسم الإنسان، ولكنها تنسى أن لهذا الإنسان عقلاً، وثانيهما أقل شغفاً بالظهور، تهتم بعقل الإنسان ولكنها تريد أولاً أن تغسله لتحشوه بما تريد، وأنا في كليهما لا أحب أن أعيش، لأنه لا مجال فيهما للمعارضة، وليس فيهما الكثير مما نود المحافظة عليه ولا الدفاع عنه، لأنهما قائمتان على الطاعة العمياء... في كليهما لا أحب أن أعيش لأن من يستعمل عقله يُعتبر فوضوياً، وعديم الشعور بالمسؤولية، وهكذا أصبحت كلمة "مفكر" منكراً بغيضة، كما كانت في الماضي، وأصبح المفكرون أعداءً يُطاردون".

لا شيء أكثر حمقاً من الاستهانة بغضب الشباب، والاستمرار في التضييق عليهم، وتجاهل تطلعاتهم وحاجاتهم ووعيهم، لاسيما في هذا الزمن المفتوح والمضطرب من كل ناحية.

يقول غونتر غراس، في أحد الحوارات معه ؛ "إنَّ للتبعية الفكرية والروحية والمادية وجهاً واحداً، وأنَّ للحرية وجوهاً متعددة". يضيف؛ "لقد أرذتُ بناءً فكرٍ نقدي لدى الألمان لإخراج الفتیان من إَسار التاريخ ومن أوهام الحاضر. لقد أرذتُ أن أتسبَّبَ في تحرير العقل الألماني، والنفسية الألمانية من الجبن والخوف والنفاق والتماس المعاذير".

30

"القناعات أكثر شراً من الأكاذيب"

أميل سيوران

الفنان الروسي يافيم لادجينسكي، كان قدره أن يوجد ويعيش بين أقبح ما كان في الاتحاد السوفييتي وقبح إسرائيل الفج. القصة أن السلطات السوفيتية كانت تمنع لوحاته ذات الطابع الديني، حتى سئم من الحصار والاضطهاد فقرر أن يهاجر إلى إسرائيل في العام 1978 وفعل، ثم طيلة أربع سنوات كان هذا الرسام يقيم المعرض تلو الآخر في إسرائيل، لكن الصدمة الأخرى التي واجهته أن المجتمع الذي هرب إليه لم يتقبل لوحاته. أخيراً وفي أحد الأيام من عام 1982 رسم لوحة كبيرة بنجمتين، في الجزء اليسار نجمة الشيوعية، وفي اليمين نجمة داوود الإسرائيلية، ثم رسم وجهه على اللوحة، بحيث تعتليه النجمتان، ثم شطبه بعلامة إكس كبيرة، وشنق نفسه في مرسمه.

القصة تقول بوضوح أن سلطات النجمة الأولى منعت، فتوقع من الثانية أن تحترمه، لكنها لم تفعل، النجمة الأولى صادرت موهبته ولاحقتها، والثانية لم تأبه لفنّه، النجمة الأولى نجمة الأيدولوجيا الشيوعية اللادينية التي لم تحترم حقَّ حرّيته ولا إنسانيته وفنّه، والثانية نجمة الأيدولوجيا الدينية التي أيضاً لم تحترم حقَّ حرّيته ولا إنسانيته وفنّه.

يحضر السؤال البدهي؛ هل تنطفئ الصورة والدهشة والمغامرة بتقدم العمر. أو على الأقل هل تدبّل..

قال الفنان المصري رمسيس يونان مرة أنه "لا يمكن لعملٍ أدبي أو فني أن يحيا من غير أن يحوي عنصراً قوياً من عناصر الانطلاق والخيال والغرابة والتمرد على المألوف من الحدود". الفنان كذلك، يموت إذا لم ينطو تكوينه على هذا العنصر من الخيال والغرابة والتمرد على المألوف من الحدود، وهذا بالذات ما يجعله غير قابل للاختطاف ولا للاستسلام لفخاخ وتعقيدات الحياة، وهذا في الغالب يكلفه الكثير من الأثمان ومشقة العيش وملاحقة لقمة صغاره، لكنه لا يستطيع التنازل عن عنصر الغرابة والخيال والتمرد الذي فيه، فهو يفهم بمنتهى إيمانه أنه ضمان إحساسه بحزبته وفرادته، بل ومعنى وجوده.

الفنان المنقطع لمصيره وحياته وفنّه، تتعتق روحه بالوقت، يصير لها ما يشبه البريق، وتلفّه دائرة حميمة وأخاذة، تنسرب في كلماته ونبرات صوته وتحديق عينيه، وحتى في شروده وصمته. الفنان تتعتق روحه بالوقت لأنه يتمسك بكل يقينه بالدهشة والمغامرة والصورة، تتغير زواياها لكنها لا تغادره، بل تتمكن منه أكثر، حتى يصير هو إياها.

(لقد كدت أسقط وأنا طفل في البئر، ولما كبرت كدت أسقط في كلمة الأبدية)

زوريا - نيكولاس كازنتزاكس

تصادف أن عابراً كان يمشي على أحد جانبي الوادي، بينما كانت روائح أشجار الطيب والدلاء تضران طرفي خيوط مدلاة من مناديل الفتيات على الضفة الأخرى. هتف الغريب

ملقياً التحية ببهجة. القرية كلها انتبهت، حتى إنه ما من جذعٍ أو هيبيةٍ، فتوةٌ أو كحل لم تجب التحية. ليلاً كانت لمعة السراج تبرق في جبهة الغريب، والأهالي حوله، ضيفوه ثم راحوا يسألونه عن قصائد الأرض التي جاء منها..

قال لهم أنه ضائع، ولا يعرف أين هي أرضه، لكن خيولاً تحت تلك الناحية من النجوم، تحب القصائد أكثر مما تحب الصهيل. سألوه عن شكلها، أخذ عوداً من فتات الحطب، وخط في الطين نصف دائرة، وعلى حدها رسم مراكب ورجالاً. قال؛ وأنا في طريقي مررت من هناك، من البحر، وهذه الأمواج العالية التي ترونها خيل.. والرجال عذوها. صفقت النسوة حينها، أما الشبان فقد كانت الكلمات تبرق في أعينهم. أحبوا الرسمة، وأحدهم قال: "لكنك لم ترسم الأشجار.. الأشجار أينها.". خفق قلب الغريب..

قبل أن يقول أو يرسم حكايةً أخرى، تكلمت امرأة كانت تجلس في المنتصف "يا ضيفنا.."، أرخى الجميع آذانهم بدهشة، كانت نحيلةٌ ولها عينان صافيتان، حتى إنه يمكن أن تُرى حركة ضوء السراج فيهما من بعيد، وكانت لا تتكلم إلا نادراً، لكنها إذا قالت شيئاً يصغي الكبار والصغار لها بترقب، وكانت كلما بدأت في عبارة زمت عينيها، وكأن شيئاً ما يعبر أمامها، وتراه وحدها، دون أن يراه أحد. قالت هذه المرأة، موجهةً كلامها للضيف العابر؛ "غنّ لنا". التفت الأهالي لبعضهم، ودارت همهمات صغيرة، قاطعتها المرأة بصوتٍ متهدج؛ "غنّ لنا"..

راح الضيف يغني برقةً بالغة، وسرت في نصف الضوء والأجساد رياحٌ عذبة. كان صوته أخذاً، وغنى ثلاث مرات، وكان قبل أن يبدأ أية أغنية يستمرّ يلؤل "يالالالا لالا لالا" لوقت. كانت أغنيته الأولى عن الأجنحة والقصب، والثانية كانت عن المطر والسواعد والبذور، أما أغنيته الثالثة فكانت عن الخلاخل والأحلام.

حين انتهى وقبل أن تصفق النسوة وتبرق أعين الشبان، قالت المرأة نفسها؛ "لتبق عندنا، لك مثل قلوبنا، رجالنا زنودهم مليئة بالعروق، وبناتنا يردنّ النبع مرتين. ابق، سنبنني لك

بيننا بيتاً، ونعطيك حقلاً ومجرفةً وماشية. أما الأشجار وأسماء الغدران فستعرفها إذا أحببت أكثر.. وغنيت أكثر". وتدافعت أصوات الأهالي "نعم.. نعم".

33

" كمن يعود من فردوسٍ مفقودٍ عدت من عناقك.

كمن يعود من بلد السيوف عدت من دموعك.

توثب متأخراً بقي مثل حلم بين تلك المساءات،

ثم رحت أدرك الليالي..

والانكسارات.

خورخي بورخيس

المأساة التي انطوت عليها حيوات عدد من عباقرة الفنون باختلافها مريعة، وعلى اختلاف ملابسات حياة كل واحدٍ منهم، إلا أنهم يلتقون في شيءٍ واحد، في لعنةٍ واحدة، أنهم لم يجدوا أية طريقة، ترضى عنها نفوسهم القلقة، لإقامة تسويةٍ محتملة مع الزيف، وهم يرون العالم، في أدق تفاصيل ما يحيط بهم، منقوعاً في الكذب والتضليل.

فنسنت فان جوغ، الذي يعتلي اسمه عرش الفن في العالم، كان ابناً لأحد أكثر العوائل في أوروبا ثراءً، بدأ حياته بالبيع في متجر لعمه، يبيع اللوحات، لكنه لم يستطع أن يقيم مصالحته مع الزيف، فكتب: "كيف يستطيع رجل أن يقضي حياته كلها يبيع السخفاء من الناس لوحاتٍ رديئة. إنني لا أفيد المتاجر شيئاً، لا أعرف سرّ البيع والشراء. أرى زملائي يخدعون المشتريين... وأرى عمي يراهم ويسمع كذباتهم ولا يقول شيئاً. هذا هو الكذب

والخداع والرياء. يجب أن أمنع هذا.. يجب أن أمنعه."، ترك المتجر، ثم اعترف يوماً بحبه لابنة عمه "أرسولا" لكنها حطمت قلبه ورفضته، فذهب لأحد القساوسة وطلب منه أن يرسله لأحد أكثر الأماكن شقاءً ليساعد المحتاجين، فبعثه إلى منجم رديء للفحم في بوريناج ببلجيكا، ثم لم يستطع أن يحتمل الظلم الذي يرى أولئك العاملين يعانونه، فسافر لمسؤولي الشركة في بروكسل، ولم ينجح في تقديم أية مساعدة لهم. هرب إلى باريس وبقى زمناً، ثم عاد لأمستردام وتوسل والد حبيبته "أرسولا" أن يوافق على زواجه منها، لم يقبل الأب، فأخذ جوخ شمعة ووضع إصبعه عليها وتركها تحترق حتى أشفق عليه عمه وهم يشم رائحة لحم إصبعه، وقبل به، لكن "أرسولا" نفسها رفضته مجدداً. رحل إلى جنوب فرنسا، واستغرق هناك يتتبع الشمس والحقول والطبيعة، وكانت نفسه تنهار شيئاً فشيئاً حتى بدأت تعتاده نوبات الجنون. أعجبتته فتاة في حانة فقطع أذنه وقدمها لها، وحين وصلت حاله لهذا الحد جاء أخوه تيوفيل ليقيم معه.

كتب جوخ في أغسطس 1863 "ماذا يحدث لو هاجمتني النوبة ثانية وتركتني مجنوناً للأبد. ماذا سيفعل تيوفيل عندها وماذا سيفعلون بي. يجب أن أذهب قبل أن تعاودني النوبة فأعجز عن اتخاذ طريق الذهاب"، ثم حمل أدوات الرسم وصعد أحد التلال، وأطلق على نفسه الرصاص، لينهي حياته تحت عين الشمس.

فنسنت فان جوخ، باع أول لوحاته بستة فرنكات، ولم يكسب من جميع لوحاته التي باعها طيلة حياته سوى مئة وثلاثين دولار، أما اليوم وهو في قبره، بعد عمرٍ قصيرٍ وتعبٍ، فالخبراء يقدرون لوحاته بما يتجاوز الستمائة مليون دولار.

جِزْمٌ.

1

قريباً من الماء..

فيما كانت الغزالة تنجب قطعاناً،

والصياد ينجب صيادين،

كان الجوع والظماً ينجبان الفرائس والهرب،

البنادق.. والحياة..

2

أقلت: إنه العجز؟.

وكنّا قبل أن نختار غصنين، وزهراتٍ ستكبر في كَنَفِ الباب،

قبل أن نصطاد سنوآتٍ، ونرتبها بمهارتك الأزلية؛

حيث النهارات في المدخل،

ونسأل؛ صورتك الضاحكة أين نضعها!

وسجائر الغزل والغضب والمزهرية أين!

ربما، ربما ربطنا يدينا والقنان والثرثرة في غرفة الجلوس، كلوحة عن الرغبة والخصام.

ها! أهذا هو العجز؟

ها! وإن يكن،

لكننا قبل أن نتدبر أمر الشباك والفرن،

سمعت أنت جلجلة في الغابة..

فطرت لها.

وبقيث.. ينهشني خيال الباب والمدخل،

اللوحات والقنان التعسة،

وسجائر الخصام!.

3

بينما أقدم على كتابة شيء عن الصباح،

والحياة تغرغره في حلقتها،

ثم تبزقه وتضحك.

بينما أرج رأسي أمام المرأة كقط مرح،

وأرى الرذاذ يلطّخها ببهجة،

بينما أفتح نافذة السيارة لأدفع ثمن القهوة،

بينما أطلبها ثقيلةً لتوقظني من سهر البارحة،

وبينما أدير الراديو بملاحةٍ ثقيلة،

بينما الشمس بمنتهى لطافتها تُدرِّعُ جِدّة،

تلقي سلامها الخجول على الرواشين والسماحة،

ها أنا أرى شارةً مرور،

والمح شيئاً سيعبر.

1. الغلاف
2. يَرِدُنَ الْمَشْرَبِ مَرَّتَيْنِ
3. فَرِطَ خَبْتَةَ
4. لَكُنَّا محبوسين
5. ظِلُّ عَالِق
6. ظِلُّ بلا قائم
7. يُظَلِّلُ شَيْئاً ثم يمحوه
8. جَزَمَ